حرب تقرير المصير في كاراباخ الأرمنية

كارولين كوكس ـ جون إيبنر
تقديم : إيلينا بونر ساخاروف
ترجمة : خالد الجبيلي

حرب تقرير المصير
في كاراباخ الأرمنية

* سلسلة الدراسات الأدبية والتاريخية ـ 5 ـ
* حرب تقرير المصير في كاراباخ الأرمنية
* تأليف : كارولين كوكس وجون إينر
* تقديم : إيلينا بونر ساخاروف
* ترجمة : خالد الجبيلي
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الأولى 1995
* الناشر :
* **دار الحوار للنشر والتوزيع**
اللاذقية ـ ص ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ سورية
* **نادي الشبيبة السورية ــ اللجنة الثقافية**
حلب ـ ص ب 3699 ـ سورية

* تصميم الغلاف : الفنان أردو هامبارتسوميان

حرب تقرير المصير في كاراباخ الأرمنية

تأليف: كارولين كوكس و جون إيبنر
تقديم: إيلينا بونر ساخاروف

ترجمة: خالد الجبيلي

تقديم

السيدة إيلينا بونر ساخاروف

ركّزت إحدى مُؤلّفات هذا التقرير، الليدي كارولين كوكس، خلال السنتين الماضيتين، اهتمامها على مساعدة سكان كاراباخ واللاجئين من كاراباخ وأذربيجان. وهي تظهر بذلك أعلى درجات الشجاعة الشخصية تحت وابل القصف والنيران، بعد أن عرضت حياتها للخطر من أجل تسليم المعونات الإنسانية مباشرة إلى مناطق القتال. وهي لم تطّلع على مصائب وآلام السكان المسالمين من هذه المنطقة، نساء وأطفال ومسنين، من أفواه آخرين أو من التقارير الصحفية: بل رأت آلامهم بأم عينيها، وأمضت الليالي معهم في ملاجىء وأقبية تحميهم من الغارات الجوية، وفي قراهم وفي بيوتهم، التي يمكن أن تتهدم في أي لحظة نتيجة إصابتها بقنبلة أو قذيفة مدفعية. وقد قاسمتهم خبزهم، عندما كان يتوفر لديهم أي منه. وبكت معهم من أجل أبنائهم وأزواجهم القتلى. وإني لا أعرف أحداً في الغرب، اطّلع إطلاعاً واسعاً على كل شيء يجري في هذه المنطقة مثلها. لذا يشرّفني أن أكتب تقديماً لهذا التقرير، رغم أنني لا أشاطرها تماماً وجهة نظرها التاريخية: إذ إني أعتقد أن أساس المأساة الحالية، لم يكن سببها السمات والخصائص الدينية والثقافية للشعبين، بل يكمن ذلك في الإصرار على أولوية مبدأ سيادة الأراضي، الذي هو حق دولة، على مبدأ تقرير المصير الوطني، الذي يعتبر جزءاً من حقوق الإنسان.

لقد انقضت سنوات خمس على بداية صراع كاراباخ. وردّاً على المناشدة السلمية التي نادت بها الجلسة الكاملة لمجلس السوفييت الإقليمي لناغورنو كاراباخ لانتقال المنطقة من الولاية الإدارية لأذربيجان، إما مباشرة إلى حكومة الاتحاد السوفييتي، كما كانت لا تزال أو إلى أرمينيا. بدأت برامج مناهضة للأرمن استفزتها السلطات الأذربيجانية (في سومغاييت، كانجا، باكو إلخ..). وتلا ذلك قيام القوات المسلحة في الجيش السوفييتي ووزارة الشؤون الداخلية في أذربيجان بترحيل شعب كاراباخ بالقوّة، وقد رافق ذلك تدمير القرى والبلدات، وحرق المحاصيل، وسرقة المواشي، وجرائم القتل والإغتصاب وأخذ رهائن وتعذيبهم في السجون في أذربيجان. إن هذا التطهير العرقي، الذي جعل أذربيجان خالية من الأرمن، والذي هدّد بجعل جميع السكان لاجئين، تم تجاهله من قبل المجتمع العالمي والأمم المتحدة، رغم المناشدات الهائلة من الشعوب الغربية والروسية. وقد أدى هذا التطهير العرقي إلى تصعيد الصراع وجعلها حرباً مفتوحة.

فضلاً عن ذلك ضربت أذربيجان في خريف عام 1989 حصاراً على أرمينيا. وفي ذلك الوقت ناشد أندريه ساخاروف البلدان الغربية لإقامة جسر جوي. وقد استندت مناشدته على التزام الجماعة الأوروبية والأمم المتحدة حماية القوانين الدولية، ولا سيما اتفاقية جنيف لعام 1948، التي تحظر حصار بلد مسالم. ومنذ ذلك الحين، يكاد يكون الحصار مستمراً. وقد أدّى إلى تدمير اقتصاد البلاد تدميراً كاملاً، وأصبح 3,5 مليون أرمني على حافة كارثة وطنية، وأضحى الآلاف مهددين بالموت والجوع والمرض، وتشبه أرمينيا اليوم لينينغراد عندما كانت محاصرة من قبل جيش هتلر خلال الحرب العالمية الثانية، إذ لا توجد كهرباء، ولا يعمل التلفاز والإذاعة؛ وقطعت الاتصالات الهاتفية، ولم تعد تصدر الصحف، ولا توجد إمدادات المياه والتدفئة، وخصص لكل شخص 200 غرام من الخبز يومياً؛ ويعيش اللاجئون في خزانات معدنية باردة، التي كانت تستخدم سابقاً لنقل البترول، وأصبحت تجوب الشوارع جماعات من الكلاب الجائعة، لذلك يضطر الناس إلى حمل عصي معهم عندما يغادرون منازلهم للدفاع عن أنفسهم، ويرى الناس الضعفاء أنه من الأفضل لهم عدم الخروج من البيت أبداً. وأصبح من المستحيل إرسال طرد أو حوالة مالية من موسكو بسبب عدم وجود رحلات جوّية منتظمة. ويتواصل الحصار (وكذلك قصف القرى والبلدات الأرمنية الحدودية) رغم إعلانها، في مناسبات عديدة،

أنه لا يوجد لديها مطالبات في أراضي جيرانها.

تقف البلدان الغربية والأمم المتحدة ومؤتمر التعاون والأمن الأوروبي ECE منذ شباط عام 1988م، موقف اللامبالاة حيال الصراع في كاراباخ، ولم تفعل شيئاً للتوصل إلى حل سلمي - حتى مجموعة مؤتمر التعاون والأمن الأوربي بقيادة ماريو رافائيللي لم تفعل شيئاً لوقف الحصار على أرمينيا وكاراباخ، أو لمساعدة ما يزيد على 350,00 لاجىء. بل لأنها لم تنتهز الفرص الدبلوماسية والسياسية لإرغام أذربيجان على رفع حصارها، وإجبار تركيا على فتح ممر إنساني إلى أرمينيا.

وناشد الرئيس الأرمني ليفون دير بيدروسيان جميع بلدان الـCIS للضغط على أذربيجان. وأعرف أن رئيس قرقيزستان، أسكر أكايف، أجاب على رسالته بنفسه وناشد زعماء هذه البلدان، وكذلك رئيس أذربيجان إلشي بي، والرئيس التركي توركوت أوزال، ولكن ماذا بوسع بلد مثل قرقيزستان أن يفعل، إذ لم تفهم بلدان كالولايات المتحدة وألمانيا أن الحصار على أرمينيا، هو شكل جديد من أشكال العنصرية: إذ يخضع شعبها لمعاناة شديدة لأنهم ينتمون إلى نفس جنسية سكان كاراباخ الذين يناضلون من أجل نيل استقلالهم.

ينبغي ذكر جانب آخر من جوانب سياسة البلدان الغربية الحالية: إذ أن عدم تقديرها لأهمية مساعدة تلك الدول الجديدة التي تحاول حكوماتها، رغم كل الصعاب، إنشاء دول ديمقراطية، ولا سيما قرقيزستان، التي هي في حاجة ماسة للمعونات الإنسانية بعد الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها في السنة الماضية، ولكنها تتلقى معونات أقل بكثير مما يتلقاه جيرانها من الشيوعيين الديكتاتوريين. كانت المعونة الدولية الأميركية موجهة في الماضي لمساعدة البلدان التي لم تنتهك فيها حقوق الإنسان والتي كانت حكوماتها تتصرف وفق المبادىء الديمقراطية. وينبغي على الولايات المتحدة اليوم، في ظل رئيسها الجديد، أن تؤكد ثانية هذه المبادىء الأساسية.

إن أرمينيا ليست بحاجة إلى الجنود الأميركيين ولا إلى أسلحتهم. فلديها حكومة وبرلمان منتخب على أسس ديمقراطية سليمة وبدون أي تزييف. وليست حكومتها متورطة في حرب أهلية مع شعبها، أو مع قسم منه. وليست هناك حاجة للقوات الأميركية في كاراباخ التي أقامت ممراً إنسانياً يربطها بأرمينيا على حساب شعبها إلا أن كاراباخ وشعبها تحتاج إلى اعتراف دبلوماسي بحقها في الوجود، وهو أمر شرعي تماماً في أعقاب الاستفتاء الذي

أجري هناك في كانون الثاني عام 1992. إن ما تحتاجه أرمينيا هو جهود دبلوماسيّة وسياسيّة من جانب البلدان الغربية لإنهاء الحصار، كما تحتاج إلى المعونة الإنسانية المؤقتة الضخمة.

وإذا لم تنسحب البلدان الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة من عزلتها الآن فإن البشرية ستشهد قريباً استسلام الديمقراطية للقوة بشكل مخزٍ وستواجه الحرب والدمار والفظائع بنفس الدرجة التي تحدث في يوغوسلافيا السابقة.

لا تزال ثمة إمكانية للوصول إلى حل لصراع كاراباخ اليوم على أساس مبادىء الدفاع عن حقوق الإنسان.

إيلينا بونر ساخاروف

11 آذار عام 1993

المقدمة

أدى انهيار الاتحاد السوفييتي إلى بروز آمال وطموحات عدد كبير من الشعوب المقهورة، التي كانت مكبوتة منذ أمد بعيد. ويشكل الصراع الذي نشأ منذ خمس سنوات في ناغورنو كاراباخ، خطراً كبيراً. كما حذر قائد قوات كومنولث الدول المستقلة المارشال ي. شابوشنيكوف، من اشتعال حرب إقليمية رئيسة. ولم يعر المسؤولون الغربيون أي اهتمام لهذه التحذيرات.

إن هذه المنطقة الداخلية الصغيرة التي يتألف معظم سكانها من الأرمن، تشكل شرخاً سياسياً ودينياً عميقاً، لا يفصل تاريخياً العالم المسيحي عن الإسلامي فحسب، بل يفصل كذلك أتراك الأناضول عن أبناء عمومتهم الأتراك في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى، وإسلام تركيا العلمانية عن الأصولية الإسلامية في إيران الثورية، كما يفصل قوات حلف شمالي الأطلسي عن قوات رابطة الدول المستقلة. ويشكل هذا الانقسام محوراً من عدم الاستقرار يمر من البلقان عبر تركيا وما وراء القوقاز حتى آسيا الوسطى. إن المصالح الأمنية لثلاث قوى إقليمية (تركيا وروسيا وإيران) تتصادم في ناغورنو كاراباخ. وتعج المنطقة بالأسلحة التقليدية وربما الأسلحة الكيميائية. إن الصراع في المنطقة يجلب خطراً إضافياً من نوع كارثة تشيرنوبيل في مفاعل ميدزامور النووي في أرمينيا المصاب بالخلل.

في غضون ذلك، فقد أحدث الصراع في ناغورنو كاراباخ نتائج كارثية تشابه تلك التي تحدث حالياً في الطرف الغربي من هذا المحور، من عدم الاستقرار في كرواتيا والبوسنة والهرسك. فقد كانت حصيلة الإصابات التي تعرض لها سكان ناغورنو كاراباخ البالغ عددهم 180,000 نسمة من الأرمن والأذاريين ـ الأتراك، كثيرة جداً: فقد لقي أكثر من 2000 مدني حتفهم، وأصيب عدد أكبر بكثير بجروح خطيرة، وتشرد عشرات الآلاف. كما انتشرت أعمال العنف والفظائع: المذابح والتعذيب والاغتصاب والتمثيل بالأموات. وقد جرفت الحرب جميع سكان ناغورنو كاراباخ من الأذاريين ـ

الأتراك البالغ عددهم 40,000 خارج منطقة الحرب إلى أذربيجان الآمنة نسبياً. ونزح ما يقدر بـ 90,000 أرمني عن ناغورنو كاراباخ، وجد معظمهم ملاذاً في أرمينيا. واستقر حوالي 20,000 منهم وراء الخطوط الأرمنية داخل ناغورنو كاراباخ. وقد انحصر هؤلاء النازحون بالإضافة إلى ما تبقى من الأرمن في المنطقة الحربية نتيجة حصار أذربيجان للمنطقة، أو الذين فضّلوا عدم مغادرة أرضهم الأم. وقد تجاهل العالم الغربي إلى حد بعيد مناشداتهم البائسة للحصول على المعونات الإنسانية والحماية. ما لم تقدم المساعدة بسرعة لهؤلاء السكان، فلا يتوقع أن يبقوا على قيد الحياة.

إن الحرب في ناغورنو كاراباخ لا تعدو سوى فصل في صراع ملحمي بين تقاليد ومؤسسات الشعبين التركي والأرمني. وسوف يعرض هذا التقرير لحوادث معاصرة في ناغورنو كاراباخ وذلك في سياق تاريخي، وسوف يركز على الانقسامات في العادات الدينية والسياسية والثقافية للطرفين المتعاديين، التي تعطي حافزاً للصراع. إن الفصول التي تتناول الأحداث المعاصرة تستند بصورة أساسية على 13 جولة لتقصّي الحقائق إلى ناغورنو كاراباخ منذ عام 1991، وزيارات إلى أرمينيا وأذربيجان فضلاً عن عدد كبير من الوثائق المنشورة.

يدرك المؤلفان، بطبيعة الحال، أن تحليل التاريخ قابل لتفسيرات مختلفة، وأنه لا يمكننا أن نفي حق جميع الموضوعات في منشورة قصيرة. على كل حال، إننا نقدم هذا التقرير على أمل أن يوفر كل من السياق التاريخي والدليل العملي، قاعدة مفيدة لزيادة تفهم المأساة المعقدة لشعب ناغورنو كاراباخ، وعملية الإبادة الجارية الآن.

ملاحظة حول الأسماء : اختار المؤلفان استخدام اسم ناغورنو كاراباخ بدلاً من الاسم الروسي "ناغورني كاراباخ" والاسم الأرمني "ارتساخ"، أما تسمية الشعوب التركية في أذربيجان، فلم تصدر تسمية موحدة لهم باللغة الإنكليزية. ففي الأعمال السابقة كان يشار إليهم مع جميع الشعوب التركية والمسلمة الأخرى في الإمبراطورية الروسية باسم "التتر" أما الآن فيشار إليهم في الصحافة عادة "بالأذاريين" أو "الأذربيجانيين" أما في الأعمال الأكاديمية، فيدعون في غالب الأحيان "بالأذاريين ـ الأتراك أو الأتراك الأذربيجانيين".

حقائق أساسية

الأرض :

إن المنطقة المتنازع عليها في أذربيجان هي عبارة عن قطعة أرض جبلية خصبة على الحافة الشرقية للنجد الأرمني، وتطل من الشرق على السهل الأذربيجاني الواسع. وإلى الغرب تقع جمهورية أرمينيا، وهي لا تبعد في أقرب نقطة عن / 5 / أميال. أما جمهورية إيران الإسلامية فلا تبعد أكثر من /15/ ميلاً إلى الجنوب. ولا تبعد البلدتان الرئيستان في كاراباخ وهما ستيباناكيرت وشوشي سوى أميال قليلة عن بعضهما بعضاً، بحيث تقع قلعة شوشي الجبلية فوق ستيباناكيرت المبنية حديثاً والتي تقع في الأسفل. وقبل اندلاع الحرب الحالية، كانت البلدتان مركزاً للصناعات الخفيفة. وفي الريف يستند الاقتصاد على زراعة الكفاف وفي أوقات السلم كانت الأرض تزود شعب ناغورنو كاراباخ بمورد جيد من مقومات الحياة.

دخل اسم ناغورنو كاراباخ، الذي يعني الحديقة السوداء الجبلية، في حيز الاستخدام بهذا الشكل في القرن التاسع عشر، ويعكس من الناحية اللغوية القوى السياسية الإمبراطورية الرئيسة التي حكمت المنطقة خلال السنوات الألف الماضية. فكلمة ناغورنو تعني (جبلي) بالروسية، في حين أن كاراباخ هي مزيج من الكلمة التركية (كارا) التي تعني أسود، وكلمة (باخ) الفارسية التي تعني حديقة. وإن استخدام الصفة "ناغورنو" يميّز الجزء الجبلي لمقاطعة كاراباخ السابقة التي حكمها الأتراك والفرس، والتي يقطنها الكثير من الأرمن، عن الجزء المنخفض، الذي يقطنه الأذاريون الأتراك بصورة رئيسة. أما الاسم (ارتساخ)، فهو اسم جمهورية ناغورنو كاراباخ، ويستخدم من قبل الأرمن وفي بعض المطبوعات الغربية.

تشير المصادر اليونانية والرومانية القديمة إلى أن ناغورنو كاراباخ كانت تشكل جزءاً من كيانات سياسيّة أرمنيّة أكبر منذ القرن الثاني قبل الميلاد على

الأقل، وحتى تقسيم مملكة أرمينيا من قبل الرومان والفرس الساسانيين في بداية القرن الخامس الميلادي. ولم يعد لناغورنو كاراباخ وحدة سياسية بعد ذلك مع الأراضي الأرمنية الواقعة إلى الغرب. ووقعت ناغورنو كاراباخ تحت حكم الألبان القوقازيين، والسلاجقة والأتراك العثمانيين، والمغول والفرس قبل احتلال الإمبراطورية الروسية لها في عام 1805م. واستمر الحكم الروسي لها بدون انقطاع حتى انهيار روسيا القيصرية في عام 1917م. وقد أحبطت محاولة تركيا العثمانية احتلال ناغورنو كاراباخ في عام 1918م نتيجة هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وأعقبت إخفاق تركيا على الفور محاولة احتلالها من قبل جمهورية أذربيجان المستقلة حديثاً التي توقفت بسبب احتلال الجيش الأحمر لكل من أذربيجان وناغورنو كاراباخ وأرمينيا في عام 1920م. وطالبت كل من جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفييتية وجمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية بناغورنو كاراباخ إلى أرمينيا. إلا أنهم تراجعوا عن قرارهم في 5 تموز 1921 - من الواضح بأوامر من ستالين - ومنحوا ناغورنو كاراباخ إلى أذربيجان.

وقد اعتبرت معظم ناغورنو كاراباخ منطقة مستقلة ذاتياً تابعة لأذربيجان في عام 1923م، وعاصمتها ستيباناكيرت. إلا أن السلطات البلشفية فصلت

الطرف الشمالي من المنطقة الأرمنية، التي تعرف بمقاطعة شاهوميان، عن المنطقة الجديدة ذات الاستقلال الذاتي. وبذا انضمت مقاطعة شاهوميان تماماً إلى جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية من الناحية الإدارية. إن الحدود التي وضعها البلشفيون جعلت ناغورنو كاراباخ منفصلة عن جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفييتية. ومع انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991، أصبحت أرمينيا وأذربيجان جمهوريتين مستقلتين. وفي 10 كانون الأول عام 1992م، أدلى معظم سكان ناغورنو كاراباخ ومقاطعة شاهوميان بأصواتهم لإقامة جمهورية مستقلة، والرئيس الحالي لناغورنو كاراباخ هو كيفورك بيدروسيان.

الأرمن :

إن الأرمن الحاليين هم مزيج من السكان الأصليين لمملكة أورارتو القديمة، التي تضم شمال شرقي الأناضول وجنوب غربي ما وراء القوقاز، والشعوب الهندية الأوروبية التي دخلت المنطقة في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. وقد زوّدت تلك الشعوب الهندية الأوروبية اساس اللغة الأرمنية المميّزة. والأرمن شعب مستقر. وقد نجمت الهجرات الضخمة من أرمينيا القديمة عن الهرب من المذابح أو الترحيل القسري الذي مارسته القوى الأجنبية. ولم تتمكن مملكة أرمينيا من أن تصبح قوة إقليمية رئيسة إلا في القرن الأول قبل الميلاد. وقد ثبت أن عمر هذه المملكة قصير. فقد ضعفت قوة مملكة أرمينيا الكبرى قبل نهاية القرن، نتيجة وقوعها عند مفترق النيران بين الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية الأكثر قوة، وفي عام 387 للميلاد، قسمت المملكة الأرمنية بينهما. وفي بداية القرن الرابع، اعتنق الأرمن المسيحية، وبذا يكونون أقدم شعب اعتنق الدين المسيحي رسمياً.

تعرّض الأرمن إلى أكبر مأساة وطنية على أيدي الأتراك خلال مجازر 1894 - 1896، والإبادة الكبرى في 1915 - 1916. وقد لقي ما يقرب من مليوني أرمني حتفهم، وبذا أبيد جميع أرمن تركيا تقريباً. وحسب الإحصاءات الرسمية يعيش 30000 أرمني فقط هناك الآن، وخاصة في استانبول والمنطقة المجاورة لها. ووجد معظم الناجين من عملية الإبادة ملاذاً لهم وراء حدود تركيا الحالية. إذ يشكل أسلافهم قاعدة الجاليات الأرمنية الكبيرة في أمريكا الشمالية والجنوبية وغربي أوروبا وأستراليا. كما يعيش مئات الآلاف من الأرمن في إيران ولبنان وسوريا. ويبلغ عدد السكان الأرمن في جمهورية أرمينيا الحالية 3,6

Shaumyan
شاهوميان
Mardakert
ماردا كيرت
NAGORNO
ناغورنو كاراباخ
KARABAKH
Aghdam
اغدام
Askeran
اسكيران
Stepanakert
ستيباناكيرت
Martuni
ماردوني
Shushi
شوشي
Lachin
لاجين
Fizouli
فيزولي
Goris
كوريس

مليون نسمة، 95٪ منهم من الأرمن، وفي عام 1988، وقبل أن يشتد الصراع في كاراباخ، كان يعيش زهاء 500000 أرمني في جمهورية أذربيجان السوفييتية. وكان 140000 من هؤلاء الأرمن يعيشون في منطقة ناغورنو كاراباخ المتمتعة بالاستقلال الذاتي، حيث كانوا يشكلون 75٪ من السكان.

لقد تشكّلت الخصائص الوطنية للأرمن عبر قرون من النضال للحفاظ على ثقافتهم من المشاق التي واجهوها. ويدرك الذين يعرفون الأرمن حقيقة ما وصفهم به البروفسور دافيد مارشال لانغ: "كانوا في الأصل شعباً فخوراً وباسلاً وتعين عليهم غالباً الانحناء أمام نير الأجنبي، ونشأت لديهم صفات من الدبلوماسيّة والحيلة لضمان بقائهم. وهم مزارعون من المرتبة الأولى، وحرفيون ممتازون، يبرزون في كل مجالات الحرف والنحت، والتفنن في المعادن الثمينة والأنسجة. وهم راجحون العقل ومجدون، ويعملون لساعات طويلة دون توقف، والأرمن اجتماعيون إلى درجة كبيرة ومضيافون، ومخلصون للروابط العائلية والمجتمع وشرفاء وهم غير مبذّرين، ويعرفون كيف يديرون صفقة صعبة" (لانغ ص 39 ـ 40).

ومن بين السمات الأقل إطراء التي لاحظها البروفسور لانغ، الميل للجدال والمشاجرة. وهذه الخاصة قد تفسر عدم قدرة الأرمن تاريخياً على الإبقاء على دولة موحدة مستقلة.

الأذاريون ـ الأتراك :

يقع موطن الأتراك في فترة ما قبل التاريخ في شرقي جبال ألتاي الموجودة حالياً في منغوليا وجنوبي سيبيريا. فقد بدأت القبائل التركية التسلل إلى شرقي ما وراء القوقاز في بداية القرن الخامس الميلادي. إلا أن العنصر التركي من سكان شرقي ما وراء القوقاز لم يصبح مهيمناً إلا عندما غزا الأتراك السلاجقة المنطقة في القرن الحادي عشر. وبسبب الفتح العربي لما وراء القوقاز وآسيا الوسطى في القرن السابع الميلادي، اعتنقت معظم القبائل التركية الدين الإسلامي.

نشأ الأذاريون ـ الأتراك الحاليون من السكان المحليين لشرقي ما وراء القوقاز والقبائل التركية الكثيرة التي غزت المنطقة واستقرت فيها لقرون عديدة. وحتى القرن العشرين، كانت هوية أتراك أذربيجان تُربط بصورة رئيسة بالإسلام وليس بالأتراك كمجموعة عرقية. وفي ظل الحكم الروسي، صُنّفوا على أنهم تتار ـ

وهو التعبير الذي استخدم لتصنيف جميع الشعوب المسلمة في الإمبراطورية الروسية، التي كان معظمها من الأتراك. وبدأ الوعي الوطني للأذاريين الأتراك يتكرس مع نهاية القرن التاسع عشر، وأخذت هويتهم كتتار بالأفول شيئاً فشيئاً. وتنتمي لغة الأذاريين الأتراك إلى مجموعة اللغات التركية الجنوبية الغربية أو (الأوغوز) التي يفهمها أبناء عمومتهم الأتراك في الأناضول. وتعرض إسلوب الحياة البدوي التقليدي وشبه البدوي للأذاريين ـ الأتراك للإنقراض بشدة في القرن التاسع عشر تحت الحكم الروسي إلا أنه لا يزال لتقاليدهم البدوية تأثير قوي على ثقافتهم السياسية. يقول خبير الأجناس الأذاري التركي إدين ماميدوف: "تقوم الثقافة التركية كلها على الثقافة البدوية. إذ تتميز الأعراق التركية بسرعة التفكير والمزاج التي يتميز بها البدو الباسلون. فهم سريعو الحركة وشديدو الاندفاع. إنها منحة طبيعية. فالأتراك يتحركون بسرعة ويقررون استراتيجيتهم وهم يتحركون، على خلاف الأوروبيين الذين يجلسون ويخططون الاستراتيجية. والأتراك يشنون دائماً حرب الصاعقة". (ص63 Cullen).

ومنذ أن نبذ معظم الأذاريين الأتراك أسلوب الحياة البدوي، أصبحوا مزارعين مستقرين وعمّالاً في المدن. ويعيش حالياً أكثر من 5 مليون أذاري تركي في جمهورية أذربيجان، (يبلغ عددهم الإجمالي 7 مليون). ويعيش ثلاثة أضعاف الأذاريين الأتراك (15 مليوناً تقريباً) في المقاطعات الأذربيجانية في شمال شرق إيران. وفي عام 1988م عندما كان الصراع الحالي في ناغورنو كاراباخ في بدايته، سكن حوالي 40000 أذري تركي في كاراباخ.

المسيحية :

لم يكن لمؤسسة تأثير كبير في تشكيل الثقافة الوطنية للأرمن أكثر من الكنيسة الرسولية الأرمنية. ففي سنة 301م استجاب الملك الأرمني درطاد الثالث لبعثة القديس غريغوريوس المنوِّر التبشيرية واعتنق المسيحية، كما فعل شعبه. وبذا يمتاز الأرمن بأنهم أول شعب يعتنق المسيحية. ورغم الضغوط المستمرة والكبيرة لاعتناق الزردشتية والإسلام وفي الآونة الأخيرة الماركسية، حافظ الشعب الأرمني على عقيدة المسيحية. ومنذ فقدانهم الاستقلال السياسي، أصبحت الكنيسة الرسولية الأرمنية النقطة المركزية للأمة الأرمنية. وقد استقلت الكنيسة الأرمنية عن الكنيسة اليونانية الرومانية منذ القرن السادس للميلاد، عندما حذت حذو الكنيسة القبطية والكنيسة السريانية الأرثوذكسية،

ورفضت قبول تعريف المجمع الخلقيدوني (451م) عن العلاقة بين الإله والطبائع الإنسانية للمسيح. ونبذت الكنيسة الأرمنية ما اعتبرته اختراعاً عقائدياً غير مقبول، وتمسّكت بعقيدة الكنيسة اليونانية ـ الرومانية ما قبل الخلقيدونية.

إن الرئيس الروحي الأعلى الحالي للكنيسة الرسولية الأرمنية هو الجاثليق فاسكين الأول من أسقفية آرارات. ويوجد كرسي الجاثليق في إيتشميادزين في جمهورية أرمينيا. وفي القرن الثامن عشر، تأسست كنيسة كاثوليكية أرمنية موالية لروما، وفي القرن التاسع عشر، بدأت البعثات التبشيرية البروتستانتية تكسب معتنقين لها بين صفوف الأرمن وعلى حين مارست الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية تأثيراً غربياً قوياً على الثقافة الأرمنية، فإن الكنيسة الرسولية الأرمنية القديمة لا تزال تتمتع بتحالف الأغلبية الساحقة للأرمن.

أصبحت ناغورنو كاراباخ جزءاً من المسيحية في أوائل القرن الرابع نتيجة للنشاط التبشيري الذي قام به القديس غريغوريوس المنوِّر. وقد بنيت أقدم كنيسة في كاراباخ في الدير في أماراس سنة 330م. ويشهد عدد الأديرة التي شيدت في ناغورنو كاراباخ على مدى القرون بحيوية الكنيسة الأرمنية هناك. ويرأس أسقفية ناغورنو كاراباخ حالياً المطران باركيف مارديروسيان.

الإسلام :

يعتبر الإسلام ديناً رئيساً بالنسبة للهوية الوطنية للأذاريين الأتراك. فلكي تكون أذرياً يجب أن تكون مسلماً. وإن مفهوم تركي مسيحي يُعتبر متناقضاً بالنسبة للمجتمع الأذاري التركي. بيد أن الأتراك الأوائل الذين تغلغلوا إلى ما وراء القوقاز لم يكونوا مسلمين. بل دخل كثير من مواطني شرقي القوقاز في الإسلام بعد فتح العرب للمنطقة في القرن السابع، وأصبح معظم السكان غير الأرمن في المنطقة مسلمين. ودعم الإسلام والسكان الأتراك احتلال السلاجقة المسلمين في القرن الحادي عشر، والأمواج اللاحقة من الأتراك الذين وفدوا من آسيا الوسطى. ولم يكن إسلام الأتراك المحتلين الإسلام السني المتشدد أو الإسلام المرن في حياة المدن، بل إسلاماً جبهوياً. يقول البروفسور برنارد لويس عميد المؤرخين الغربيين عن الأتراك: "كانت عقيدتهم عقيدة حربية، وكانت لا تزال تضطرم في نفوسهم روح المسلمين الأوائل المقاتلين الذين كانت عقيدتهم الدعوة إلى السلاح". (لويس ص12). وأصبحت غالبية الأذاريين الأتراك من

الشيعة تحت تأثير فارس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، رغم وجود حوالي 25٪ من الأذاريين الأتراك اليوم على المذهب السني. وجعل الاحتلال الروسي لما وراء القوقاز في أوائل القرن التاسع عشر الأذاريين الأتراك في وضع سيء كأقلية دينية. وفي القرن العشرين تعرّض الإسلام إلى اضطهاد شديد عندما خضعت أذربيجان للحكم السوفييتي. وفي منتصف الثمانينات، كان ثمة 16 مسجداً مفتوحاً فقط في جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية ولم يكن هناك أي مسجد في ناغورنو كاراباخ. وازداد عدد المساجد نتيجة لإصلاحات غورباتشوف واستقلال أذربيجان. ويعتبر شيخ الإسلام باشازاده، رئيس المجلس الروحي الإسلامي لما وراء القوقاز الذي يقع مقره في باكو، الرئيس الروحي للمسلمين الأذاريين الأتراك.

سقطت ناغورنو كاراباخ تحت الحكم الإسلامي مع الفتح الإسلامي في القرنين السابع والثامن. غير أن السكان ظلوا على دينهم المسيحي وحافظت الكنيسة على استقلالية كبيرة. وانحصر الإسلام في الجالية الأذارية التركية فيها. وكما حدث للمسيحية، فقد توقف الإسلام الرسمي عن الوجود في ناغورنو كاراباخ خلال اضطهاد ستالين للدين، إلا أنه استمر سرّاً. وقد أعيد فتح مسجد في شوشي خلال فترة احتضار الحكم الشيوعي.

صراع الحضارات :

تكمن جذور الحرب في ناغورنو كاراباخ في الصراع الرئيس للحضارات. فقد كان الوطن الأرمني القديم ساحة معركة هامة من الناحية الاستراتيجية للحضارات المتنافسة منذ فجر التاريخ. ففي القرن الرابع ألقت أرمينيا بمصيرها مع العقيدة المسيحية. ونتيجة لذلك، أصبحت أرمينيا مرتبطة بالعالم الإغريقي اليوناني. ومع ذلك، فعلى الرغم من أنها كانت تطور أسلوب حياتها الثقافي والروحي نحو الغرب، فقد سعت للاحتفاظ بمؤسسات دينية وسياسيّة أرمنية مستقلة. وبعد ذلك، ولقرون عديدة، وقعت أرمينيا في وسط حرب دموية بين الإمبراطورية البيزنطية الإغريقية وبين فارس الزردشتية. وفي القرن السابع، تعرض الأرمن إلى أول هيمنة إسلامية في ظل حكم العباسيين، إلا أنه منذ احتلال ما وراء القوقاز والأناضول من قبل السلاجقة الأتراك في القرن الحادي عشر، فإن الموضوع الرئيس للتاريخ الأرمني يتمثل في النضال من أجل البقاء ضد زحف القوى التركية.

التتريك :

إن هيمنة الأتراك على الأناضول وما وراء القوقاز، من قبل السلاجقة في البداية ومن ثم من قبل الإمبراطورية العثمانية أدى إلى تتريك وأسلمة معظم المنطقة. وقد أدت عملية التطهير العرقي والديني هذه إلى إبادة السكان المسيحيين في الأناضول. وعندما هزم الأتراك السلاجقة البيزنطيين في معركة مانازكيرد الحاسمة في عام 1071م. كانت غالبية سكان غربي الأناضول والأناضول الوسطى من الإغريق، في حين كان الأرمن والسريان الأرثوذوكس الذين يتكلمون السريانية يهيمنون في الشرق. ويحلول القرن الخامس عشر، أحدثت عملية التتريك التدريجية أغلبية تركية. ومنذ طرد 1,25 مليون مسيحي من الروم الأرثوذوكس بين عامي 1923 و1930م، التي تعتبر آخر مرحلة رئيسة من مراحل "تطهير" السكان المسيحيين من تركيا، لم تبقَ هناك سوى أعداد قليلة من الجاليات اليونانية والأرمنية والسريان الأرثوذوكس. ولا يزال المسلمون الأكراد، الذين تشن الدولة التركية حالياً حرباً ضدهم في جنوب شرقي الأناضول، الأقلية العرقية الوحيدة الباقية ذات الأعداد الكبيرة.

تقوم الحضارة التركية بصورة كبيرة على التراث التركي البدوي وعقيدتها الإسلامية. ولأن الإسلام عقيدة فوق طور الأمة، فقد كان بمثابة وسيلة فعّالة للمصالح الوطنية التركية. وقد استمد الأتراك بحرية من تقاليدهم البدوية والإسلام عندما سعوا لتحقيق طموحاتهم الوطنية والإمبريالية.

الحرب المقدسة :

اعتبر كل من حكام السلاجقة والعثمانيين أنفسهم "جنود للإسلام" وأن مهمتهم تكمن في إقامة إمبراطورية إسلامية عالمية. وكان احتلال الأناضول وما وراء القوقاز بالنسبة للسلاجقة والأتراك العثمانيين يعتبر حرباً مقدسة. وقد أكد المؤرخ التركي الدكتور خليل إنالجيك على أهمية هذا الموقف الذي لعبته المؤسسة الإسلامية في ثقافة الغزاة الأتراك:

"كان يهيمن على هذه الثقافة المفهوم الإسلامي للجهاد. فبأمر الله يجب الجهاد ضد الكفار (دار الحرب) دون هوادة وتوقف حتى يستسلموا. وحسب الشريعة، فإن أملاك الكفار التي يتم الاستيلاء عليها في هذه الإغارات، يمكن الاحتفاظ بها كغنائم، ويمكن تهديم بلادهم وأسر سكانها أو قتلها. وقد نظمت

الشريعة أعمال الجهاد المقدس التي يقومون بها" (إنالجيك، خليل "ظهور العثمانيين" ص263).

وقد أعقبت الحروب المقدسة التي شنّها الأتراك في الأناضول وما وراء القوقاز هجرة القبائل البدوية التركية بأعداد كبيرة من الشرق.

الراعي والرعية :

شكّلت العادات البدوية القديمة الغرائز السياسيّة للقبائل التركية، وحددت، دون شعور منهم، شكل إدارتهم للإمبراطورية. وقد لاحظ توينبي وكيركوود أن العلاقة بين الحاكمين والمحكومين في الإمبراطوريات التركية كانت تشبه إلى حد كبير العلاقة بين الراعي والبدوي، وكلب الحراسة، والقطيع: "لقد تحوّلت طاقات البدوي فجأة من رعي المواشي إلى حكم إمبراطورية: وشأن جميع البشر، شرع في حل المشكلة الجديدة التي واجهته بتطبيق تجربته الماضية الخاصة. وهو يفكر بنفسه على أنه لا يزال الراعي، ولكن ليس على المواشي بل على البشر، ومن أجل الإبقاء على "المواشي البشر" (قطيع أقل وداعة من الأغنام والأبقار) تحت سيطرته، يقوم باختيار وتدريب "كلاب حراسة من البشر" لمساعدته، ويبذل جهداً في تربيتهم وتدريبهم أكبر مما بذله أسلافه، في البوادي، لتوفير مستلزمات الحيوانات.. بالتفصيل، فإن أسلوب الإمبراطوريات البدوية كان يتمثل في معاملة معظم رعاياهم المستقرين على أنهم "مواشي بشرية" ويجب جلبهم من حين لآخر وجزهم، ويجب إبقاؤهم تحت السيطرة عن طريق جمعهم بالقوة عند أول علائم العصيان، ولا يسمح لهم بالعيش كما يحلو لهم في الأحوال الأخرى. وبغية السيطرة على تلك "المواشي البشرية" عن طريق هيئة من مجموعة صغيرة منتخبة من عبيد "كلاب الحراسة" التي يتم تجنيدها جزئياً من أسرى الحرب، وجزئياً من ضحايا تجار الرقيق، وجزئياً من الأطفال الذين يستولى عليهم من حين لآخر من "القطيع البشري" لكي يروضهم سيدهم، بدون تأنيب ضمير أكثر مما يشعره الراعي عند عزل الحمل عن أمه أو عند عزل العجل عن البقرة" (توينبي وكيركوود، ص19 - 21).

قام الأتراك بعزل أفراد "القطيع البشري" لمواصلة ما ذكره توينبي وكيركوود- ليس على أساس اللغة أو الجماعة العرقية، بل على أساس الملة، أي الديانة. فقد كان المسلمون واليهود والروم الأرثوذوكس، والأرمن الرسوليون وجميع

الجماعات الدينية المعترف بها يشكلون مللاً منفصلة. وقد شكلت الملل الوحدات الأساسية للحكومة العثمانية المحلية. وكانت الملة الإسلامية تعادل الأمة، جماعة المؤمنين المسلمين، الذين يمثلون المجتمع الديني الأعلى، يتمتعون بالحقوق والمزايا التي حرمت منها الملل الأخرى. وكان للمسيحيين واليهود وضع قانوني أدنى كذمّيين، التي تعني باللغة العربية المحميين. إلا أن الأتراك استخدموا في أغلب الأحيان كلما رايا (الرعية) بمعنى القطيع ـ بدلاً من تعبير أهل الذمّة الذي ينطوي على كرامة أكثر من تعبير الرعية.

إن مفهوم الذمّي في الإسلام متأصل بممارسة النبي محمد (ص) في توطيد المواثيق مع الجاليات اليهودية والمسيحية في البلدان المحتلة. وقد مكنت هذه المواثيق أهل الذمّة من عدم الانقراض. وكانت الدولة الإسلامية تسمح لأهل الذمّة بممارسة عقيدتهم والتمتع بإدارة ذاتية شبه مستقلة محدودة. وفي المقابل كان يتوقع من أهل الذمّة تقديم الولاء السياسي إلى الدولة الإسلامية، وقبول وضع اجتماعي من الدرجة الثانية ودفع الجزية. وعقب ذلك وضع المشرعون العرب أنظمة مفصلة للحد من إهانة المسيحيين واليهود التي نفذت فيما بعد في الإمبراطورية العثمانية. ثم عزل المسيحيين واليهود بشدّة عن المجتمع المسلم في تركيا العثمانية. فكان عليهم دفع ضرائب أعلى وارتداء ثياب مميزة. وقد ضعفت قدرة الجاليات غير المسلمة على الدفاع عن أنفسهم إزاء العنف بمنع الرعية من حمل السلاح. وكانت جالياتهم تخضع بين الحين والآخر للمؤسسة العثمانية (ديفشيرمة) أي حصاد الصبية، حيث يؤخذ الصبية الأقوياء جسدياً من عائلات الرعية، ويرغمون على تغيير دينهم وخدمة السلطان كعبيد في الجيش أو الإدارة، وكان يتم تسوية النزاعات القانونية بين المسلمين وغير المسلمين في محكمة دينية، حيث كانت تمنع شهادة غير المسلم. وقد عانى الأرمن من مضرة خاصة بهم، أعفى منها المسيحيون الآخرون في الإمبراطورية. فقد كان على الأرمن تأمين ملاذ شتوي للأكراد الرحل ومواشيهم خلال فصل الشتاء. وكان يسمح لبعض أفراد الرعية الحصول على ثروة كبيرة بخدمة الدولة العثمانية في التجارة والمصارف. إلا أن الفوائد التي كان يحصل عليها القلة لم تكن تشمل مجتمعاتهم ككل. لقد كانت الأنظمة التي فرضت على الرعية تهدف إلى جعل المسيحيين واليهود غير قادرين على تشكيل تهديد سياسي وجعلهم يخدمون مصالح الدولة العثمانية.

تعرض إطار العلاقات الإسلامي الراسخ بين المسلمين وغير المسلمين في تركيا إلى تغيير كبير في المائة سنة التي سبقت تداعي الإمبراطورية العثمانية في عام 1922م. وقد تحدد هذا التغيير نتيجة أفول الإمبراطورية العثمانية، وكان له تأثير عميق على الأرمن وعلى الأقليات الأخرى في تركيا. ومنذ فشل الجيوش العثمانية احتلال فيينا في عام 1683م، أخذت قوة الإمبراطورية العثمانية تتدنى بسرعة بالمقارنة مع القوى المسيحية الكبرى في أوروبا. وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت امبراطورية الغزاة القوية "الرجل المريض في أوروبا" وبضغط شديد من القوى الأوروبية، أرغمت السلطات العثمانية على تطعيم بعض المؤسسات، من قبيل شكل برلماني حكومي، والمساواة بين المواطنين أمام القانون، في الإطار المؤسساتي الإسلامي للإمبراطورية.

ثبت أن تنفيذ الإصلاحات التحررية سطحي إلى حدٍ بعيد. وكانت تهدف لإرضاء الحكومات الغربية، وفي الكثير من الحالات، لم تنفذ في الأقاليم. يقول البروفسور أوريل هيد إن إصلاح وضع غير المسلمين في تركيا في منتصف القرن التاسع عشر كان "قد نجم عن الضغط الأوروبي، وليس عن الرأي العام الذي أصبح متحرراً بشكل متزايد في تركيا". وثبت أن التقليد الإسلامي لا يتوافق مع مفهوم المساواة القانونية للأديان. يقول البروفسور هيد:

"إن المأثور الديني عن تفوق الإسلام والتقليد القديم قدم القرون بسيادة المسلمين على الكفار، خلق وضعاً أصبح من المتعذر تغييره بسهولة. إن انتقال الإمبراطورية العثمانية، رأس حربة الإسلام، إلى دولة علمانية حيث مُنح غير المسلمين مساواة تامة كان أمراً لا يمكن إدراكه." (أوريل هيد، "الإمبراطورية العثمانية الأخيرة في روميلي والأناضول". في هولت ص366).

إلا أنه كان للإصلاحات تأثير هام على المجتمعات غير المسلمة في تركيا العثمانية. وبالإشارة إلى الضعف اليائس للإمبراطورية الإسلامية، حفزوا نهضة ثقافية بين السكان المسيحيين ورغبة جامحة للتحرر من القهر العثماني. وخلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد تركيا العثمانية كل أقاليمها تقريباً في البلقان الواحدة إثر الأخرى أمام حركات التحرر اليونانية والصربية والرومانية والبلغارية. وقد شجع نجاح هذه الحركات الوطنية الزعماء السياسيين

للأرمن ـ الذين اكتسبوا سمعة (الملة الموالية) ـ من أجل النضال لتحقيق الطموحات الوطنية التي كبتت منذ أمد بعيد.

كما كان لنجاح القوميات المسيحية في البلقان تأثير كبير في تحقيق الاستقلال وفي تنامي القومية التركية. وأصبح ينظر إلى الإسلام الكلاسيكي الذي يعلو على الوطنية على أنه وسيلة لتحقيق الطموحات الوطنية التركية. ودخل الإسلام المحافظ والوطنية التركية الحديثة في سجال شديد للهيمنة السياسيّة مع اقتراب الإمبراطورية العثمانية من نهايتها. وفي عشية الحرب العالمية الأولى، حلت الوطنية التركية العسكرية في شكل "الطورانية" محل الإسلام الكلاسيكي كأيديولوجية الدولة.

الطورانية :

كما هو شأن أيديولوجيا مؤسسي الإمبراطورية العثمانية فقد استمدت الطورانية من مصدرين مألوفين هما: التقاليد التركية القديمة والإسلام. غير أن التركيز تحول في الطورانية من الإسلام التقليدي إلى التقاليد التركية. وقد أصبح الذئب الرمادي أو "البوزتورك" الذي كان الأتراك يعبدونه ما قبل الإسلام بصفته أم عرقهم، رمزاً للشعب الطوراني. ورفع أتيلا خان وجنكيز خان إلى مصاف الأبطال للإنسان التركي المعاصر. وفي حين بقي الإسلام قوة روحية وثقافية مكوناً متكاملاً للطورانية، واعتبر الطورانيون الأتراك أن الجانبين السياسي والاجتماعي للشريعة الإسلامية يمكن الاستغناء عنهما كما استمدت الطورانية عنصرين من الغرب هما: العلوم الحديثة والوسائل التكنولوجية للتقدم المادي. وقيام مفهوم الدولة الوطنية في القرن التاسع عشر على أساس اللغة. وظل التفكير الثقافي اليهودي ـ المسيحي للعالم الغربي غريباً تماماً عن الطورانية.

انطوت الطورانية على مبدأين. الأول، يكمن في إزالة القوميات غير التركية المستوطنة في تركيا. وقد أعلن وزير الحربية التركي وتلميذ الطورانية نظيم بك، على الملأ في عشية الحرب العالمية الأولى: "يجب أن تكون دولتنا تركية نقية، وذلك لأن وجود قوميات أخرى داخل حدودنا يعطي العذر للقوى الأجنبية بالتدخل من طرفهم. ينبغي أن نترّك القوميات غير التركية بالقوة" (هوستلر، ص99).

لم يكن أنصار الطورانية عقائديين حول الوسيلة لتحقيق هذه الغاية. فقد

اعتقد "الأتراك الشبان" الذين تبوؤوا السلطة في عام 1908، بسذاجة في البداية أن تتريك غير الأتراك في الإمبراطورية يمكن أن يتم بدون عنف في إطار الحكومة الدستورية. إلا أنه عندما أصبح واضحاً أن الشعوب غير التركية لن تخضع بإرادتها لسياسات التمثل بدون عنف، فقد اعتبرت المجازر والترحيل بالقوة ـ الوسيلة التي يجلها المحاربون الأتراك القدماء ـ مسوغة حسب الفكر السياسي الطوراني.

تمثل الهدف الثاني من الطورانية في توحيد جميع الشعوب التركية سياسياً. فقد كان يعيش عدد من الأتراك خارج حدود الإمبراطورية العثمانية تحت الحكم الروسي والفارسي أكبر مما يعيش داخل حدودها. ومن الناحية التاريخية، حقق العثمانيون نجاحاً في توسيع امبراطوريتهم غرباً نحو أوروبا أكبر مما حققوه شرقاً نحو ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى. ولكن مع نهاية القرن التاسع عشر، بدأت الإمبراطورية العثمانية في الأفول بسرعة. وتطلع الجيل الأول من الطورانية أساساً إلى الشرق لاستعادة المجد العثماني. وكانت المنطقة التي تقطنها الشعوب التركية تمتد من البلقان إلى جدار الصين العظيم. وكان الطورانيون يطلقون على هذه المنطقة اسم "طوران" وهو الاسم الفارسي للمولد الأسطوري للشعوب التركية. وكان ضياء كوك ألب أبرز أيديولوجي للطورانية، الذي حدد الطموح الإمبريالي للأيديولوجية في قصيدته "طوران":

"إن بلد الأتراك ليست تركيا، وليست تركستان، إن بلدهم أرض واسعة الأرجاء خالدة: إنها طوران" (لويس، ص345).

وكتب كوك ألب ثانية عند اندلاع الحرب العالمية الأولى: "ستدمّر أرض الأعداء، وستكبر تركيا لتصبح طوران" (لويس ص 345).

تطورت الطورانية في تركيا وأذربيجان بشكل متوازٍ. وقد شهدت العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى نهضة ثقافية تركية بين الأذاريين الأتراك. وجاهدت الصفوة المثقفة عند الأذاريين الأتراك لخلق الظروف الثقافية للوحدة السياسية للأتراك. وحلّت التركية محل الفارسية كلغة أدبية عند الأذاريين الأتراك. وكان علي بك حسين زادة، الكاتب والعضو في قيادة "تركيا الفتاة" أول المثقفين الأذاريين الأتراك الذي نقل الطورانية من المجال الثقافي إلى السياسي. وكان لحسين زادة، الذي كتب تحت الاسم المستعار "طوران"، تأثير كبير على صديقه ضياء كوك ألب. فقد تبنى كوك ألب والحركة

الطورانية الشعار الذي رفعه حسين زادة: "التركية، الإسلام والحضارة الأوروبية". وفي عشية الحرب العالمية الأولى، كانت الطورانية أقوى تيار للحياة السياسية بين الأتراك في الإمبراطورية العثمانية وأذربيجان.

إن قوة رؤيا الطورانية لا تزال عاملاً قوياً في الحياة السياسيّة في تركيا وأذربيجان. إن زعماء البلدين لا يصرحان علانية بتعبير الطورانية الذي يخلق شعوراً بعدم الارتياح عند جيرانهم وحلفائهم. إلا أن خطبهم وسياساتهم تكشف عن ميول طورانية قوية. وقد انتهزت تركيا الفرصة التي نجمت عن انهيار الاتحاد السوفييتي للعمل لإقامة كومنولث تركي يتألف من تركيا وأذربيجان والجمهوريات التركية في وسط آسيا. ففي أول مؤتمر قمة طوراني عقد في تشرين الأول عام 1992، أعلن رئيس الوزراء التركي سليمان دميريل حسب ما جاء في التلفزيون التركي: "إن العالم التركي، الذي... يمتد من البحر الأدرياتيكي إلى الصين، قد برز كحقيقة واقعة. إن ذلك يعتبر تحقيقاً لحلمنا منذ مائة سنة. وخلال عام 1992م، كانت تركيا الرائدة في وضع الأسس للتكامل الاقتصادي والثقافي والسياسي للدولة التركية. وقد برزت كتلة تركية تقودها أنقرة للترويج للمصالح التركية في المحافل الدولية كالأمم المتحدة ومؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي ومنظمة المؤتمر الإسلامي. وقد حققت تركيا أعظم النتائج مع أذربيجان أقرب جار تركي لها سواء أكان ذلك جغرافياً أم لغوياً. ومنذ الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي أخذت أذربيجان تتحرك بشكل مضطرد نحو تركيا، فقد انتخب رئيس أذربيجان أبولفيز الشي بي، الذي كان قد سجنه السوفييت لنشاطه الطوراني، في حزيران 1992 استناداً إلى برنامج يدعو إلى تبني النموذج التركي للدولة الأذارية التركية الوليدة. وتحبذ مجموعات المعارضة الأذارية الرئيسة النموذج التركي. ففي كانون الثاني عام 1993م أصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية في أذربيجان. ويشير اسم وكالة الأنباء الأذارية وشبكة اتحادات العمال "طوران" إلى هيمنة الأفكار الطورانية المثالية في المجتمع الأذاري التركي. إن القومية المفرطة ومعاداة الأرمنية التي تتصف بها القيادة السياسيّة الأذربيجانية اتضحت تماماً عندما قام وزير الداخلية اسكندر غاميدوف بتهديد أرمينيا بهجوم نووي وأيد إنشاء دولة طورانية في مسيرة سياسيّة في باكو في تشرين الثاني عام 1992م. وقد رسخت أذربيجان وتركيا الآن أهداف سياستهما الخارجية المشتركة وتحالفهما العسكري. إن تبعات صعود

الطورانية كانت تاريخياً، ولا تزال حتى يومنا هذا، مأساوية بالنسبة للأرمن والمجتمعات غير التركية الأخرى في تركيا وما وراء القوقاز.

الإبادة الجماعية

لقد قدمت إبادة الشعب الأرمني في تركيا أول مثال "للتطهير العرقي" في القرن العشرين وعلى مستوى عالٍ. وقد ألهم نجاح إبادة الشعب الأرمني في الأناضول هتلر. فقد أعلن الفوهرر في كلمة وجهها إلى جنرالات جيشه عام 1939م أنه أرسل إلى الشرق وحدات الموت ومعها أوامر بقتل جميع رجال ونساء وأطفال العرق البولوني بدون رحمة ثم سأل متفحصاً: "ومن يتكلم اليوم عن إبادة الأرمن؟" ثم أجاب "إن العالم لا يحترم سوى النتائج الناجحة". وبما أن "التطهير العرقي" قد أصبح مرة أخرى أحد سمات السياسة الأوروبية ـ في شمال قبرص والبوسنة والهرسك وناغورنو كاراباخ ـ فإن ما خلص إليه هتلر يبدو صحيحاً بصورة رهيبة.

المذابح في التسعينات من القرن التاسع عشر

وصل التطهير العرقي للأرمن من تركيا إلى ذروته في 1914 ـ 1916م. إلا أن العملية بدأت تزداد زخماً قبل ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً. فقد شرع السلطان عبد الحميد، الذي كان يخشى من قوة حركات استقلال غير المسلمين المتنامية في البلقان، في تعزيز التركيبة الإسلامية في امبراطوريته. لذلك تصالح مع المسلمين الأكراد، الذين كانوا ثائرين، ونظمهم في فرق خيالة لضبط الأرمن. وقد أدخلت هذه الفرق الرعب في نفوس الأرمن فارتكبوا الجرائم وسلبوا ونهبوا وقد أدى هذا القهر إلى ظهور منظمات سياسيّة أرمنية سريّة تهدف إلى تحرير الأرمن من وضعهم المتدني، واعتقد كثير منها من حزبي الهنتشاك والطاشناقستيون أنه يمكن الحصول على الحرية في تركيا العثمانية فقط بتدخل روسيا وباستخدام السبل الثورية. ونظم حزب الطاشناقستيون وحدات للدفاع عن النفس أطلق على أفرادها (الفدائيين) وهي كلمة عربية تدل على شخص مستعد للموت في سبيل عقيدته. وهكذا ازداد النشاط السياسي الأرمني.

كانت استجابة حكومة السلطان عبد الحميد سريعة. ففي عام 1893م، تم زج أكثر من 1800 مسيحي، أغلبهم من الأرمن، في السجن اعتباطاً. وتم تعذيب معظمهم. وكان من بين المعتقلين راهبين من الأرمن البروتستانت اللذين أطلق سراحهما بسبب احتجاجات قدمتها بريطانيا العظمى. وفي السنة التالية تحولت موجة الاعتقالات إلى مذابح برعاية الحكومة. فقد تعرضت جماعات الأرمن في أرجاء الأناضول الوسطى والشرقية إلى هجومات وحشية. وكان نموذج هذه المجازر واحداً إلى درجة كبيرة. وقد اختير أفراد الكنيسة الرسولية الأرمنية للهجوم عليهم من بين الأرمن الكاثوليك والبروتستانت. فقد تم تحذير الكاثوليك والبروتستانت سلفاً للبقاء في كنائسهم في أيام الآحاد. وفي وقت معين، يثور السكان المحليون تدعمهم القوات التركية ضد الأرمن الرسوليين لقتلهم وسلبهم.

أرسل القنصل الفرنسي في ديار بكر في الجنوب الشرقي من البلاد تقريراً إلى سفارته في 3 تشرين الثاني عام 1895م عما شاهده بأم عينيه عن مجزرة الأرمن هناك قال فيه:

"بدأ سكان المدينة بقتل الأرمن، دون أي استفزاز منهم. وقد شاهد الوالي والقائد العسكري ورئيس الشرطة الأعمال الوحشية ولم يفعلوا شيئاً

مشهد من المجازر الأرمنية عام 1915

لإيقافهم. وقد رأيت بأم عيني الجنود والدرك وقد وقفوا إلى جانب السكان والأكراد وأخذوا يطلقون النار على الأرمن، الذين أستخدموا اسلحتهم عندما لم يجدوا وسيلة أخرى لإنقاذ حياتهم." (كوتشاريان ص97). وفي مدينة أورفة في الجنوب الشرقي، لجأ 3000 أرمني إلى كنيستهم في 28 - 29 كانون الأول عام 1895م. واقتحمت القوات التركية المكان وأطلقت النار على كثير من اللاجئين. ثم استخدمت الكيروسين لإشعال الكنيسة. وقد وصف القنصل البريطاني هذا المشهد بقوله:

"اشتعلت النيران بالأعمدة والإطارات الخشبيّة في الممر، وسدّت السلم المؤدي إلى الممر بمواد مشتعلة مماثلة، وأصبحت الكتل البشرية المكافحة فريسة لألسنة النار. وعمّت رائحة اللحم المشوي المثيرة للغثيان لساعات عديدة في البلدة، وحتى اليوم، وبعد شهرين ونصف من ارتكاب المجزرة، لا تزال رائحة البقايا المتفحمة في الكنيسة لا تحتمل".

لم تنحصر المجازر في المقاطعات الوسطى والشرقية. وفي محاولة يائسة لتشجيع القوى للتدخل، نظم حزب الهنتشاك مظاهرة من البطريريكية الأرمنية إلى مقر الحكومة. وطلب ضحايا المجزرة من البطريرك ماتيوس إزميرليان نقل رسالة بسيطة إلى الدبلوماسيين الأوروبيين: "إن إبادة شعب مسيحي بكامله سيكون وصمة عار في جبين أوروبا إذا لم تتدخل لصالحنا" (كوتشاريان، ص101). وأسفرت المظاهرة عن إراقة الدماء في شوارع العاصمة التركية. وهاجم الجنود ورجال الشرطة المتظاهرين الأرمن وقُتل 20 أرمنياً وجرح مائة. لم يكن هذا الهجوم على المتظاهرين الأرمن سوى مقدمة لهجوم أوسع نطاقاً على الجالية الأرمنية في القسطنطينية. ففي 26 آب عام 1896م، احتلت مجموعة من الشبان الأرمن البنك العثماني في العاصمة وهددت بتفجيره مع موظفي البنك البالغ عددهم 160 موظفاً وكان الهدف من هذا التصرف الإرهابي اليائس حفز القوى الأوروبية لتقديم الحماية للمقاطعات الأرمنية في تركيا وإدخال إصلاحات. ثم أطلق سراح الرهائن بعد 16 ساعة وسمحت السلطات التركية للإرهابيين الأرمن بالذهاب إلى فرنسا بأمان. إلا أن هذا العمل الإرهابي استخدم كذريعة لأعمال انتقامية ضد السكان الأرمن الأبرياء في استانبول، وفي اليومين التاليين، جلبت قوات من الشرطة ومتعصبين دينيين ورجال قبائل أكراد لذبح السكان الأرمن في القسطنطينية. وقُتل ما يقرب من 10000 أرمني وسجن ما لا يقل عن 6000. وتم ترحيل 20000 أرمني آخر من القسطنطينية

إلى الأناضول الوسطى والشرقية. وبذلك انخفض عدد السكان الأرمن في العاصمة التركية.

وفي النهاية أثّرت الاحتجاجات الأوروبية الجماعية الثلاثة. فقد خفّت حدة موجة المجازر إلا أن ذلك لم يحدث إلا بعد أن هلك ما يتراوح بين 100000 و300000 رجل وامرأة وطفل من الأرمن. وهرب ما يقرب من 100000 شخص من البلاد. ونجا عشرات الآلاف من الموت بعد أن اعتنقوا الإسلام. وبيع كثير من النساء والأطفال الأرمن كرقيق.

تركيا الفتاة

أثرت الآمال بحدوث تعايش سلمي بين الأرمن والأتراك في الإمبراطورية العثمانية في عام 1908م. فقد جرفت ثورة تركيا الفتاة الإتوقراطية الإسلامية المحافظة لحكم السلطان عبد الحميد ووعدت بإحداث حكومة دستورية حرة. ودعمت المجموعات السياسيّة الأرمنية تركيا الفتاة. فقد كتب دبلوماسي بريطاني في القسطنطينية إلى وزارة الخارجية بعد يومين من استلام تركيا الفتاة السلطة: "ينتاب الجمهور شعور بالمرح، ومن الرائع أن ترى الشعور بالأخوة بين المسلمين والمسيحيين وخاصة الأرمن (ووكر، 1980 ص181). إلا أن تسامح وحرية سادة "تركيا الفتاة" في القسطنطينية ثبت أنه سطحي. فقد تحول حكم تركيا الفتاة إلى ديكتاتورية لا ترحم ورفعت شعار الطورانية. وكان هدفها الثنائي يتمثل في تتريك الأقليات العرقية في تركيا بالقوة والاتحاد السياسي مع أتراك أذربيجان وآسيا الوسطى. إن اندفاع الحرب العالمية الأولى أتاح "لتركيا الفتاة" الفرصة لتحقيق أهدافها. فمن ناحية، أبعدت الحرب اهتمام القوى الأوروبية الكبرى عن الشؤون الداخلية لتركيا. وأصبح أعضاء تركيا الفتاة الآن في وضع يمكنهم من التعامل مع الأرمن ومع الأقليات غير التركية كما كانوا يرغبون دون خوف من عمليات انتقام القوى الكبرى. ومن الناحية الأخرى، فقد بشر تحالف تركيا مع ألمانيا في الحرب ضد روسيا باتحاد أتراك أذربيجان وآسيا الوسطى الذين كانوا تحت حكم روسيا. وانتهز أعضاء تركيا الفتاة الفرصة. ففي تشرين الثاني عام 1914م أصدروا بياناً وقّعه الخليفة يدعو إلى شن حرب مقدسة ضد أعداء الإسلام ولا سيما روسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا. وفي منتصف شباط عام 1915م، وضعت قيادة تركيا الفتاة خطة لإبادة الأرمن ـ وهي خطة تماثل الخطة التي

نفذت ضد الأرمن في ناغورنو كاراباخ في ربيع وصيف 1991.

كان أول تحرك للسلطات التركية يهدف إلى تجريد المجتمع الأرمني من إمكانية الدفاع عن النفس. وفي شباط عام 1915م، تم تطهير الأرمن من إدارة الدولة ومن مناصبهم في الجيش. وأخذ الضباط الأرمن في الجيش التركي وعشرات الآلاف من المدنيين الأصحاء كرهائن. وخضعت الجاليت الأرمنية في أرجاء تركيا إلى عمليات التفتيش عن الأسلحة نفذتها فصائل خاصة من الأتراك والأكراد المدججين بالسلاح - وفي كثير من الحالات أطلق سراح المجرمين من السجن للقيام بهذه المهام. ورافق عمليات التفتيش هذه فظائع وحشية من قبيل الاغتصاب وحرق النساء والأطفال حتى الموت والفلقة التركية - حيث تعلق الضحية رأساً على عقب وتضرب على باطن قدميها - وصلبها. وقد أعقب ذلك أوامر بترحيل جميع السكان الأرمن القاطنين في تركيا. وقد بذلت السلطات التركية جهداً لتقديم أساس قانون لهذا العمل - "القانون المؤقت لترحيل السكان المشكوك فيهم" الصادر في 5 أيار عام 1915م:

"عندما تستدعي الضرورة العسكرية، فإنّه بوسع قادة الجيش، وقادة الفرق والكتائب العسكرية ترحيل سكان البلديات والقرى، فرادى أو جماعياً وإعادة توطينهم في أماكن أخرى، إذا كانوا موضع شبهة بالخيانة أو التجسس" (كوتشاريان، ص118).

انطوت أعمال الترحيل على شكلٍ خُطط له جيداً. ففي البداية، طُلب من الرجال الأرمن الأقوياء الجسم المثول أمام مكتب الحكومة الوطنية حيث تم اعتقالهم. ثم أطلقت عليهم النار أو طعنوا حتى الموت. وبعد أن ترك المسنون والنساء والأطفال دون قيادة تماماً، أرغموا على القيام بمسيرة الموت عبر الصحراء في شمالي سورية إلى مدينة حلب، حيث أرسلوا شرقاً نحو صحراء ما بين الرافدين أو جنوباً باتجاه دمشق. وامتلأ الدرب بالجثث. ووضع الناجون في معسكرات اعتقال. وعجّت المعسكرات بالنساء والأطفال المهزومين الذين عصف بهم الجوع والزحار والتيفوئيد. وقد أعاقت السلطات التركية الجهود المبذولة لتقديم المعونات لهم. ومُنع الدبلوماسيون الغربيون والبعثات التبشيرية من تقديم العون والمساعدة. وقد أصاب الأتراك والأكراد المحترمين الشعور بالغثيان لهذه الأهوال. وكانت عقوبة تقديم المساعدة للأرمن من قبل المسلمين هي الموت. فقد أصدر والي (وان) أمراً أعلن فيه: "يجب إبادة الأرمن. إذا ما قدم

مسلم حماية لمسيحي، فإن منزله سيحرق أولاً. ثم سيقتل المسيحي أمام عينيه، ثم عائلته ثم هو" (ووكر 1980 ص207). إلا أن بعضهم جازف في ذلك.

كان القنصل الإيطالي في طربزون، السنيور غوريني، واحداً من العديد من الدبلوماسيين الغربيين والبعثات التبشيرية الذين قدموا رواية شهود عيان على عمليات الترحيل بالقوة: "لقد ثارت أعصابي وانتابني الغثيان، فقد كانت مشاهدة عمليات القتل بالجملة لتلك المخلوقات البريئة التي لا حول لها ولا قوة أمراً فظيعاً. فقد كان مرور جماعات المنفيين الأرمن تحت النوافذ وأمام باب القنصلية؛ وكانت تضرعاتهم لتقديم المساعدة تعلو، في حين لم يكن بوسعي أو بوسع أي شخص آخر مساعدتهم؛ لقد كانت المدينة في حالة حصار، يحرسها في كل نقطة 15000 عسكري مدججين بالمعدات الحربية الكاملة، وآلاف من رجال الشرطة، وعصابات من المتطوعين وأعضاء "جمعية الاتحاد والترقي" (زعامة "تركيا الفتاة")؛ إن العويل والبكاء والفراق، والدعاء والانتحارات العديدة، والموت نتيجة الرعب، وجنون الرجال المفاجىء، والحريق، وإطلاق النار على الضحايا في المدينة، وعمليات البحث الوحشية في البيوت وفي الريف، ومئات الجثث التي توجد يومياً على طول طريق مسيرة النفي، وجعل

مشهد من المجازر الأرمنية عام 1915

النساء يعتنقن الإسلام بالقوة أو ينفين كالأخريات؛ وفصل الأطفال عن عائلاتهم، أو من المدارس المسيحية وتم تسليمهم لعائلات مسلمة، ثم وضعهم بالمئات على متن سفينة لا يرتدون شيئاً سوى قمصانهم، ثم تغرق بهم السفن في البحر الأسود ونهر دايرمان دارا ـ تلك هي ذكرياتي التي لا يمكنني أن أنساها عن طربزون، الذكريات التي لا تزال، بعد مرور شهر، تعذب روحي وتكاد تذهب بعقلي (توينبي 1916، ص291 ـ 292) وقد وثق فظائع المجزرة بشكل مفصل ودقيق اللورد برايس والبروفسور توينبي في الكتاب الأزرق البريطاني الصادر عن البرلمان، منوعات رقم 31 (1916). أعيدت طباعته وصدر بعنوان "معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية" وصدر باللغة الألمانية عن منشورات جوهان لبسيوس).

سعت السلطات التركية لتسويغ الفظائع تلك بالادعاء بأن الأرمن كانوا ثائرين. إلا أن ضابط الاتصال الألماني في أرضروم، الجنرال بوسلت، أعلم سفارته في 26 نيسان 1914 بأن الأرمن سيبقون هادئين إذا لم يقم الأتراك بالضغط عليهم أو بالإساءة إليهم، وبأن "سلوك الأرمن كان ممتازاً" (ووكر 1980، ص214). وفي بعض الأماكن مثل (وان) و(سيواس)، تمكن الأرمن من شن مقاومة مسلحة. إلا أنها أخمدت لتفوق الأتراك عليهم من حيث العدة والعدد. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت الأناضول في تركيا، فارغة تقريباً من الأرمن. فمن بين المليونين ونيف أرمني في تركيا هلك مليون ونصف. وبقي زهاء 850000 على قيد الحياة. وهرب ما يقرب من 250000 من الناجين إلى روسيا، وأرغم ما يقدر بـ200000 على اعتناق الإسلام وظلوا في الأناضول. واكتشفت قوات الحلفاء المنتصرة ما يقرب من 400000 أرمني مُهجر في الأقاليم السورية التابعة لتركيا.

لقد عُرفت محنة أرمن تركيا في أوروبا وأمريكا الشمالية. وقد تأثر الرأي العام الغربي كثيراً. إلا أن تصرف الحكومات هذا كانت تقرره السياسة الواقعية. فقد أعلنت حكومات الحلفاء في 23 أيار عام 1915 بأنه "خلال الشهر الماضي، شارك الأكراد وأتراك أرمينيا بذبح الأرمن بمساعدة السلطات العثمانية بل وبتواطؤ منها" ووعدت بتحميل المسؤولين الحكوميين الأتراك المتورطين المسؤولية الشخصية (ووكر، 1980، ص231) ورداً على طلب الرئيس وودرو ويلسون لإعلان أهداف الحرب، أعلن الحلفاء في كانون الثاني عام 1917م من بين أمور أخرى "تحرير الشعوب القابعة تحت ديكتاتورية

الأتراك السفاحين، وطرد الإمبراطورية العثمانية من أوروبا التي أثبتت أنها غريبة تماماً عن الحضارة الغربية". غير أن مناوئي تركيا في الحرب، بريطانيا وفرنسا، والولايات المتحدة بعد عام 1917م كانوا قادرين على تحقيق هذه الأهداف قبل نهاية الحرب. ومن الناحية الأخرى، كان حلفاء تركيا، ألمانيا وإمبراطورية هابسبرغ، قادرين على التأثير على الحكومة في القسطنطينية. فقد اعترف سفير ألمانيا إلى تركيا، البارون فون فانغنهايم لحكومته بأن "هذه الإجراءات قاسية جداً على الأرمن". وخلص إلى "أنني أرى أن نحاول فقط التخفيف من شكلها، إلا أننا يجب ألا نمنعهم من حيث المبدأ". (ووكر، 1980، ص232). ولم تلق أي من النداءات الألمانية بالتخفيف من حدّة المجازر آذاناً صاغية. فقد كان الانتصار في الحرب من أولى اهتمامات قوى المحور. وبعد الحرب، لم يقم الحلفاء المنتصرون بتحرير الشعوب غير التركية المقهورة في الأناضول. بل أصبح تقوية تركيا ضد روسيا البلشفية، التهديد الأكبر لأوروبا، يتصدر اهتمامات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة.

كلابات الطورانية

بذور الإبادة الجماعية في ما وراء القوقاز

لم تتعرض ناغورنو كاراباخ إلى الإبادة الجماعية في تركيا. فقد كانت ناغورنو كاراباخ مع بقية ما وراء القوقاز تحت الحكم الروسي منذ أوائل القرن التاسع عشر. لذلك، كانت محمية من سياسة الحكومة التركية المتمثّلة في التطهير العرقي. إلا أن الحماية لم تكن تامة. ففي عام 1905م عصفت بروسيا القيصرية أحداث ثورية. وكانت باكو، المدينة الصناعية الرئيسة لما وراء القوقاز، مسرحاً للإضرابات والإضطرابات التي أثارها العمال. وكانت استراتيجية الحكومة الروسية للتعامل مع الصراع الطبقي تتمثل في تعميق التوترات بين الأعراق ـ سياسة فرّق تسد. فقد كان الأذاريون الأتراك يشكلون نصف سكان المدينة. وكان الأرمن والروس يشكلون سوية الأغلبية. وكان جميع قادة الحركة الديمقراطية الاشتراكية المتطرفة تقريباً من الأرمن أو الروس. وكانت العلاقات بين الجاليات المختلفة متوترة منذ بداية القرن. ففي أوائل شباط عام 1905م، اتخذت جريمة القتل الانتقامية لأرمني وأذري ذريعة لهجوم مسلح منظم على الجالية الأرمينية في باكو. وفي 6 شباط، أخذ الأذاريون الأتراك بتشجيع من السلطات الروسية، يدمرون الحي الأرمني في المدينة، يقتلون ويسلبون، وهرب الأرمن من باكو أو دافعوا عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون وقتل ما يقرب من 1500 شخص: ثلاثة أرمن لكل اثنين من الأذاريين. وبعد أيام من أعمال العنف بين الجاليات، خفّت حدة القتل بالتدريج، بفضل تعاونٍ الزعماء الروحيين من الأرمن والأذاريين.

أشعلت المجازر في باكو سلسلة من أعمال العنف. ففي ربيع عام 1905م خيَّم جو من المجازر فوق بلدة ناخيتشيفان، التي كان يبلغ عدد سكانها 6000 أذاري و2000 أرمني. وناشد الأرمن السلطات الروسية لحمايتهم، إلا أنها لم تنجدهم. وفي 25 أيار هاجمت عصابات منظمة من الأذاريين أرمن

ناخيتشيفان. وفي خلال ثلاث ساعات فقط قتل 50 أرمني. ثم انتشرت أعمال العنف إلى المناطق الريفية المجاورة. في أواخر آب عام 1905م تفجّرت الصدامات بين الأذاريين والأرمن في ناغورنو كاراباخ. وكانت بلدة شوشي مركز القلاقل. وكان سكان شوشي آنئذ مقسمين بالتساوي بين المجموعتين العرقيتين. وبدأ العنف عندما أطلق الأذاريون النار على عربة مليئة بالأرمن. وكان أرمن شوشي مستعدين بشكل أفضل من الأرمن في باكو وناخيتشيفان. وتبع ذلك سلسلة من أعمال القتل كانت حصيلتها 300 قتيل، ثلثاهم من الأذاريين. وأشعل الصراع في شوشي جولة أخرى من أعمال العنف في باكو في أيلول. وخفت حدة العنف العرقي في ما وراء القوقاز عندما قمعت السلطات الروسية قوات الثورة في نهاية عام 1905م. إلا أن وضع القلاقل هذا استمر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، التي كانت بمثابة محرّض لتجدد أعمال العنف على نطاق واسع.

العدوان الطوراني

أدخل نظام الاتحاد والترقي الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا بهدف إخراج روسيا من القوقاز وآسيا الوسطى. وكان هدفها في دخول الحرب توحيد جميع الشعوب التركية سياسيّاً مع تركيا. وأعطيت الأولوية على الاتحاد مع الأتراك الأذاريين تحت الحكم الروسي والفارسي كخطوة أولى نحو الاتحاد مع الشعوب التركية في آسيا الوسطى. وكان الأرمن في ما وراء القوقاز يشكلون عائقاً في وجه توسع الإمبراطورية التركية شرقاً، وهو عائق كان نظام الاتحاد والترقي عازماً على إزالته وهكذا امتدت عملية الإبادة الجماعية للأرمن إلى ما وراء القوقاز.

وفي خريف عام 1914، حشد نظام الاتحاد والترقي على عجل جيشاً طورانياً في الأناضول الشرقية لمواجهة أرمينيا الواقعة تحت الحكم الروسي. وفي تشرين الثاني، شُنّ الهجوم الطوراني. ثم أعلنت حكومة الاتحاد والترقي على الملأ هدفها الطوراني:

"إن مشاركتنا في الحرب العالمية تمثل إحقاقاً لهدفنا القومي المثالي. إن الهدف المثالي لأمتنا وشعبنا يقودنا لتدمير العدو الموسكوي لكي نحصل على حدود طبيعية لامبراطوريتنا، التي يجب أن تشمل وتوحد جميع فروع عرقنا" (ووكر 1980، ص198).

وعندما شن الهجوم، قاده شخصياً زعيم "الاتحاد والترقي" أنور باشا. وكان أنور قد وجّه قسماً من جيشه شرقاً للقتال مع الجيش الروسي، في حين وجّه قسماً آخر إلى الجنوب الشرقي إلى أذربيجان الفارسية بهدف احتلال باكو من الجنوب. وتوقع أن تساعد قواته على طول الطريق انتفاضات الأذاريين الأتراك ضد حكامهم الروس. وسرعان ما دخل جيش أنور الطوراني إلى أرمينيا. إلا أن هزيمة الجيش الروسي لم تدم طويلاً. ففي منتصف عام 1915م، ألحق الجيش الروسي هزيمة ساحقة بقوات أنور داخل أرمينيا الروسية حتى مسافة 25 ميلاً في صاريغاميش. وقتل أو مات نتيجة التجمد 75000 عسكري من قوات أنور البالغة 95000 عسكري أما القوات العثمانية التي أرسلت إلى أذربيجان الفارسية فقد أحرزت نجاحاً أكبر. ففي جنوب شرق تركيا وأذربيجان الفارسية، لم يكن الجزء الأكبر من المسيحيين فيها من الأرمن، بل من "الآشوريين" الذين يتكلمون اللغة السريانية. تعرض أولئك الذين وقفوا في وجه الجيش العثماني الزاحف وأنصاره من الأذاريين المحليين للقتل والاغتصاب والسلب، وبذا بدأت أكبر المجازر ضد المسيحيين "الآشوريين"، التي كانت توازي جرائم إبادة الأرمن في تركيا. وفي كانون الثاني عام 1915م، احتل الجيش العثماني تبريز، حيث بدأ الأتراك الشبان في تجنيد الأذاريين الأتراك المحليين لشن هجوم على باكو. وفي الربيع تعرضت القوات العثمانية في أذربيجان الفارسية لهزيمة ساحقة على يد الجيش الروسي وانسحبت إلى الأناضول.

تمكن الأتراك الشبان من استئناف هجومهم الطوراني عندما شرعت الثورة البلشفية في عام 1917م بحل الجيش الروسي فيما وراء القوقاز. وانتهزت الحكومة التركية الفرصة لتحقيق أهدافها الطورانية. وخلال ربيع عام 1918م، وفيما كانت مفاوضات السلام جارية، تقدمت القوات التركية نحو القوقاز. وبذلت كونفدرالية ما وراء القوقاز غير الفعالة والتي لم تدم طويلاً، التي كانت مؤلفة من جورجيا وأرمينيا والأذاريين الأتراك، بذلت محاولة هشة لملء الفراغ السياسي نتيجة انهيار القوة الروسية. وأعقب انحلال كونفدرالية ما وراء القوقاز في أواخر أيار 1918م إنشاء جمهوريات جورجيا وأرمينيا وأذربيجان المستقلة. وتم ملء الفراغ العسكري من ناحية، من قبل القوات العثمانية المحتلة، ومن ناحية أخرى، من قبل الوحدات العسكرية البلشفية المؤلفة من الأذاريين والأرمن المتمركزة في باكو. وكانت جميع الوحدت جيدة التسلح نتيجة مصادرة الأسلحة من الجيش الروسي المنحل. وقد ساند الجيش العثماني الزاحف

وحدات عسكرية من الأذاريين. وتشكل "الجيش الإسلامي" - وهو وحدة خاصة مختلطة من القوات العثمانية النظامية والمتطوعين الأذاريين بقيادة أخي أنور باشا، في مدينة كانجا (إليزا فيتبول، كيرو فاباد) شمالي ناغورنو كاراباخ. وكانت الخطة العسكرية للجيش العثماني والأذاريين الأتراك تقضي بالانقضاض على باكو التي كانت آنئذ بيد السوفييت بقيادة البلاشفة. وحيثما ذهب الجيش التركي كان يعقبه تدمير المجتمع الأرمني. إذ يكتب البروفسور كاظم زادة عن الهجوم الطوراني:

"لم يعرف جشع المحتل حدوداً. إذ كان ثملاً بنشوة انتصاراته المستمرة، ومدركاً بأن ضحاياه لا حول لهم ولا قوة، لم يوقف الأتراك شيء في سبيل اكتساب أكبر قدر من الأراضي". (كاظم زادة، ص116).

كان الهجوم نحو باكو يهدف إلى قتل الجمهورية الأرمنية الوليدة، ليس بالهجوم المباشر على عاصمتها (يريفان)، بل بخنقها. إذ أدى حصار القوات العسكرية التركية المتفوقة من جميع الجهات، إلى أن أصبح الجزء المتبقي من أرمينيا أكثر ضعفاً وحرم من مقومات الحياة. فقد أعلنت بعثة دبلوماسية في آب 1918:

"لقد حرمت (أي أرمينيا) من آخر منطقة منتجة لها. ولم يتخلى الأتراك عن هدفهم في إبادة الأرمن. فالهدف يكمن في إماتتهم جوعاً وتدميرهم اقتصادياً (سركيسيانتس، ص220).

لقد جابه العدوان الطوراني في ما وراء القوقاز مقاومة منظمة عنيفة من قبل القوات الأرمنية اليائسة. وقد أعيدت سياسة الأتراك في ذبح الأرمن بالمقابل. إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً. فقد كان الأرمن أقل عدة وعدداً. وبحلول أيلول كانت القوات العثمانية والأذارية تتأهب للاستيلاء على باكو. ونظراً لكونها أكبر مدينة في أذربيجان ومركزاً لصناعة نفطية غنية، كانت باكو مطمعاً للأتراك. ومع ذكريات أعمال العنف عام 1905 التي كانت لا تزال ماثلة في الأذهان مع الإدراك العميق لمصير الأرمن الرهيب الذي كان يقف في طريق الهجوم الطوراني، أثار تقدم "الفرقة المتوحشة" التي كان معظمها من الأذاريين الأتراك فزع الأرمن والروس في باكو، في آذار عام 1918م. وكانت الفرقة المتوحشة وحدة خاصة قوقازية تشكلت داخل الجيش الروسي عشية الحرب العالمية الأولى، وأصبحت إحدى الوحدات الوطنية المسلحة المنافسة في القوقاز عقب انهيار الجيش الروسي في 1917، ودخلت القوات الموالية للسوفييت اليساريين

في باكو في معركة ضد "الفرقة المتوحشة" وأخذت تقذف نيران مدفعيتها على المناطق الأذارية الآهلة بالسكان. وانضمت الوحدات الأرمنية إلى جانب سوفييت باكو. وأخذ الصراع شكل "أعمال عنف عرقية شديدة". ويكتب كاظم زادة قائلاً:

"تواصلت الأعمال الوحشية لمدة أسابيع. ولم يبد أي من الطرفين أي رحمة، ولم يحترم السن أو الجنس. واندفعت حشود كبيرة في الشوارع وراحت تحرق البيوت وتقتل المارين الذين يتبين أنهم أعداء، وقُتل الكثير من الأبرياء على يد الأرمن والأذاريين على حد سواء." (كاظم زادة، ص73).

وبلغ عدد القتلى عدة آلاف. وتجاوز عدد ضحايا الأذاريين الضحايا الأرمن، وهرب نصف سكان باكو المسلمين من المدينة.

ورغم هزيمة "الفرقة المتوحشة"، استمر الهجوم الطوراني ليحرز تقدماً باتجاه باكو. ومع نهاية حزيران عام 1918م، أصبحت المدينة محاصرة. وأعطى وصول فرق صغيرة من القوات البريطانية عن طريق البحر من بلاد الرافدين في منتصف آب، شيئاً من الأمل للأرمن والروس المدافعين عن باكو. إلا أنهم بعد أن شعروا بالانتصار الحتمي للقوات التركية، أبحر البريطانيون ثانية في 14 أيلول عام 1918م. واندفع الجنود الأذاريون غير النظاميين إلى باكو في أعقاب مغادرة البريطانيين، في حين بقي الجنود النظاميون العثمانيون خارجها لمدة يومين وتبع ذلك قتل المدنيين المعتاد. ويسجل كريستوفر ميخائيلوفيتش، أحد الناجين الروس ذلك بقوله:

"في جميع المدن كانت مذابح السكان الأرمن وسرقة الشعوب غير التركية جارية. فقد كسروا الأبواب والنوافذ، ودخلوا الأحياء المأهولة، وسجنوا الرجال والنساء والأطفال وقتلوهم في الشارع. وكانت تسمع أصوات صرخات الناس من جميع البيوت.. وفي بعض الأماكن كان ثمة جبال من الأجساد الميتة، وكان في العديد منها جروح رهيبة من رصاصات "الدام دام". وكانت أكثر الصور إثارة للفزع عند مدخل زقاق الخزنية في شارع سوروخان سكوي. وكان الشارع بأكمله مكسواً بأجساد القتلى من الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم التسع أو العشر سنوات وكان ما يقرب من ثمانين جثة تحمل جروحاً نتيجة الإصابة بالسيوف أو الحراب، ومنهم من قطعت رقبته، وكان من الواضح أن هؤلاء البائسين كانوا قد ذبحوا كالحملان". (ووكر 1980، ص261).

تقول التقديرات المتحفظة إن عدد القتلى الأرمن بلغ 9000. ووصل الهجوم الطوراني إلى ذروته مع احتلال باكو في أيلول عام 1918م، ونجح الأتراك الشبان في تعزيز ممر بين تركيا وأذربيجان عن طريق أرمينيا. وفي غضون ذلك، أرغمت الجمهورية الأرمنية المنهزمة والتي أصابتها المجاعة على توقيع معاهدة (باطوم) المخزية. فقد خفضت المعاهدة مساحة أرمينيا إلى أقل من 12000 ميل مربع أكثرها من الأراضي المجدبة والخالية من الصناعة. وانحشر 600000 أرمني، كان نصفهم من اللاجئين، و100000 أذاري في منطقة غير منتجة وغير محمية حول يريفان وإيتشميادزين. وحرمت المعاهدة أرمينيا من الخطوط الحديدية إلى العالم الخارجي ومنعتها من الاحتفاظ بجيش. وأصبحت الجمهورية الأرمنية المقطّعة تابعة لتركيا.

المعركة من أجل ناغورنو كاراباخ

لم تنه معاهدة (باطوم) المشينة صراع أرمينيا من أجل البقاء. ولم تقم بذلك حكومة يريفان، بل قام بذلك قائد الفدائيين الأرمن الجنرال انترانيك. وعلى عكس أوامر حكومته، اتخذ انترانيك مواقعاً للدفاع عن ناغورنو كاراباخ، التي أصبحت آخر معقل لمقاومة الأرمن ضد الهجوم الطوراني، وقد كان الجيش الذي قاده العثمانيون قد تجاوز ناغورنو كاراباخ وهو في طريقه إلى باكو. ثم أخذت تطالب بها كل من الجمهوريتين، الأرمنية والأذارية. إلا أن المنطقة أصبحت مستقلة بحكم الواقع. وكانت سياسة حكومة ناغورنو كاراباخ المنتخبة تتمثل في التعاون مع الجنرال انترانيك للدفاع عن المنطقة من الهجوم الطوراني.

وفي أيلول عام 1918م. تركزت أنظار أنور على ناغورنو كاراباخ. وقتلت القوات التركية وطردت الأرمن في المنطقة الواقعة بين كاراباخ وجمهورية أرمينيا، وبذا تحولت إلى منطقة مغلقة. وفي 22 أيلول، شنّ 5000 جندي من القوات التركية هجوماً باتجاه شوشي، عاصمة ناغورنو كاراباخ. وبعد أحد عشر يوماً، احتلت هذه القوات المدينة بمساعدة بعض السكان الأذاريين. ومن شوشي توجهت القوات التركية لإخضاع باقي المنطقة. وأبيدت قرى عن بكرة أبيها وقتل المدنيون. إلا أن هجوم القوات الطورانية في ناغورنو كاراباخ أوقفته المقاومة العنيفة للسكان المحليين وأنهاه استسلام تركيا للحلفاء في أواخر تشرين الأول عام 1918م.

لقد زودت هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى أرمن ناغورنو كاراباخ ببصيص من الأمل في البقاء. وحلّت القوات البريطانية بقيادة اللواء ي. م. طومسون محل الجيش العثماني في ما وراء القوقاز حسب ما جاء في الهدنة. إلا أن المصالح البريطانية لم تكن تتماشى مع مصالح ناغورنو كاراباخ. فقد كان البريطانيون، (الذين كانت إحدى عيونهم متجهة نحو حقول النفط في باكو، والأخرى مركّزة على التهديد البلشفي شمال جبال القوقاز)، مهتمين لتقوية أذربيجان وعند اقتراب نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت بريطانيا تنظر بعين الرضى إلى إنشاء حاجز تركي في وجه توسع روسيا الشيوعية في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى. وأمر طومسون أرمن ناغورنو كاراباخ بالاستسلام للسلطات الأذارية، وعيّن الدكتور خسرف بك سلطانوف الذي كان على حد تعبير ووكر "طوراني متحمس، وصديق الاتحاديين في القسطنطينية، ومثيراً للرعب في نفوس جميع الأرمن". (ووكر، 1980، ص270) حاكماً مؤقتاً على ناغورنو كاراباخ.

رغم تهديدات بريطانيا بممارسة القوة، لم يكن أرمن كاراباخ مستعدين لتسليم أنفسهم للأذاريين. وأعلن المؤتمر الخامس لأرمن كاراباخ:

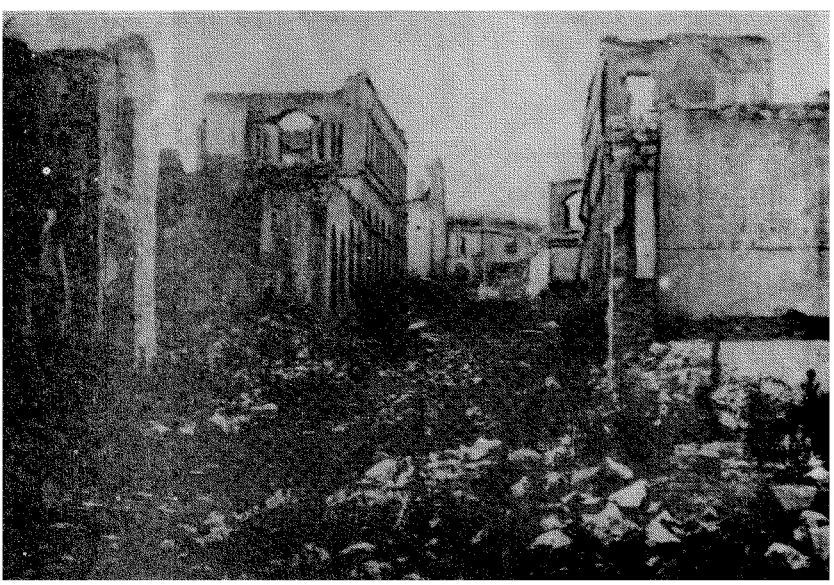

مدينة شوشي بعد تدميرها من قبل الأذاريين الأتراك عام 1920

"إن أذربيجان لا تزال حليفة للأتراك، وشاركت في جميع أعمال العنف التي قام بها الأتراك ضد الأرمن، ولا سيما أرمن كاراباخ" (ووكر ,1991 ص95).

وبدعم من بريطانيا، بدأت سياسة من التجويع والرعب ضد ناغورنو كاراباخ. وفي ربيع عام 1919م، وضعت المنطقة تحت حصار اقتصادي ونظم جنود غير نظاميين من الأكراد في فرق إرهابية لتدمير القرى الأرمنية. وقتل مئات من الأرمن في شوشي وكركجان وباهلو وفي قرى أخرى. وقد أتت هذه السياسة بالنتائج المرجوة. فقد وافق المؤتمر السابع لأرمن كاراباخ في 22 آب

امرأة أرمنية من مدينة شوشي بزيها الشعبي - نهاية القرن التاسع عشر

على الاعتراف "مؤقتاً" بسلطة الحكومة الأذربيجانية حتى يتمكن مؤتمر السلام لما بعد الحرب من الانتهاء من رسم الحدود النهائية لأذربيجان. وحصل الأرمن مقابل ذلك على "الاستقلال الذاتي الإقليمي لجميع كاراباخ، والاستقلال الذاتي القومي والثقافي لسكانها الأرمن" الذي كانوا موعودين به. وفشلت الاتفاقية في إحلال السلام. وأعلن قادة ناغورنو كاراباخ فيما بعد:

"لم يشهد السكان الأرمن من قبل جرائم وأعمال قتل وانتهاكات اقتصادية بهذا الشكل، كما حدث بعد توقيع الاتفاقية" (ووكر 1991، ص98). كما كانت السلطات الأذارية غير راضية بالاعتراف المؤقت، ونقلت معظم قوات الجيش الأذاري، ومن ضمنها قوات من تركيا، إلى كاراباخ. وبعد انسحاب القوات البريطانية من أذربيجان، طالب سلطانوف باندماج غير مشروط لكاراباخ مع أذربيجان. وفي 22 آذار عام 1920م، ثار أرمن كاراباخ خوفاً من هجوم وشيك. وفي 4 نيسان، دخل الجيش الأذاري ودمّر معظم شوشي. وقتل نصف سكان المدينة. وعرضت رؤوس المطران وارطان وعدد آخر من أرمن كاراباخ البارزين وهي معلقة على الرماح احتفالاً بنصر الأذاريين. وبعد أن أصبحت شوشي خالية من معظم سكانها الأرمن، تم تتريكها فعلياً.

الحكم السوفييتي

توقفت إبادة الأرمن الجماعية في القوقاز نتيجة الاحتلال السوفييتي للمنطقة في عام 1920م. فقد مكّن تواجد القوات الأذارية بشكل كثيف في كاراباخ عند تدمير شوشي الجيش الأحمر من الاستيلاء على باكو والإطاحة بحكومة أذربيجان في نهاية نيسان عام 1920 بسهولة نوعاً ما. وفي أواخر عام 1920م قام الجيش الأحمر باحتلال جمهورية أرمينيا التي كانت قد تعرّضت إلى هجوم عسكري آخر على يد تركيا في ذلك الخريف. وتوقف وضع ناغورنو كاراباخ عن كونه إحدى قضايا القانون الدولي. بل أصبحت إحدى سياسات السوفييت الداخلية.

ارتفعت آمال الأرمن عندما أعلن الزعيم الأذاري الشيوعي ناريمان ناريمانوف في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1920م بأن "ناغورنو كاراباخ وزانكيزور وناخيتشيفان (منطقتان متنازع عليهما تقعان إلى جنوب غربي كاراباخ) جزء لا يتجزأ من أراضي جمهورية أرمينيا الاشتراكية (ووكر، 1991، ص105). إلا أن ذلك لم يكن سوى مكيدة دعائية لتشجيع الأرمن لاعتبار الجيش الأحمر

كمخلص في عشية احتلاله لجمهورية أرمينيا. وما إن أصبحت جمهورية أرمينيا تحت قبضة الشيوعيين حتى سحب ناريمانوف تنازلاته وأعاد تأكيده بمطالبته بضم ناغورنو كاراباخ إلى أذربيجان.

رفع موضوع كاراباخ إلى مكتب الحزب الشيوعي لما وراء القوقاز لتسويته. وأصدر المكتب مرسوماً في 3 حزيران عام 1921م، بأن ناغورنو كاراباخ تنتمي إلى أرمينيا. وهدّد ناريمانوف بقيام نشاط معاد للسوفييت من جانب الوطنيين الأذاريين إذا ما منحت ناغورنو كاراباخ إلى جمهورية أرمينيا الاشتراكية. وأكد المكتب القوقازي قراره في 4 تموز، الذي أثار حفيظة الأذاريين. إلا أن ستالين الذي كان رئيس دائرة الشؤون القومية آنئذ تدخل عند هذه النقطة. وفي اليوم التالي، وفي حضور ستالين، أوقف المكتب قراره بدون مناقشة. وقرر المجلس "ترك ناغورنو كاراباخ داخل حدود أذربيجان، وإعطائها قدراً كبيراً من الحكم الذاتي الإقليمي، ويكون مركزها مدينة شوشي (ووكر، 1991 ص108). وقد تطابق هذا القرار مع سياسة ستالين حسب قانون فرق تسد للقوميات. وبوضع أرمن كاراباخ داخل اذربيجان "كرهائن". فإن احتمالية قيام الجمهورية الأرمنية الاشتراكية السوفييتية بتصرف مناقض لأمنيات الكرملين ستقل. بالإضافة إلى

منظر من قرية تاك

ذلك، يمكن أن تكون منطقة أرمنية "مستقلة ذاتياً" داخل أذربيجان بمثابة طابور خامس مع السوفييت في حال عدم ولاء الأذاريين.

ثبت أن "الحكم الذاتي الإقليمي الواسع" الذي وعدت به ناغورنو كاراباخ أمر وهمي. وفي صيف 1923، حدّدت جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية وضع المنطقة الأرمنية. فقد أنشأت "منطقة ناغورنو كاراباخ المستقلة ذاتياً بإدارة محلية تتشكل بشكل رئيس من المسؤولين الشيوعيين الأرمن. إلا أنه تم فصل الرأس الشمالي من كاراباخ ـ مقاطعة شاهوميان ـ الذي كان 80٪ من سكانه من الأرمن وممر لاجين البالغ عرضه 4 أميال المؤدي إلى جمهورية أرمينيا، عن المنطقة المستقلة ذاتياً ووضعت تحت الحكم المباشر لأذربيجان. وكانت حكومة المنطقة المستقلة ذاتياً تعتمد اعتماداً كاملاً على باكو وموسكو.

أحدث الرعب السوفييتي توازناً حذراً بين الأرمن والأذاريين. وتم قمع إبداء الطموحات القومية بشدة. فقد كانت السياسة السوفييتية تهدف إلى خلق إنسان اشتراكي جديد فارغ من أي حنين قومي. وكان إحدى الجوانب الهامة لهذه السياسة الحملة ضد الدين. إذ اعتبرت العقيدة الماركسية اللينينية الدين على أنه أحد الجذور الثقافية الهامة للقومية الذي يجب استئصاله. وقد عانى الأرمن والأذاريون على حدٍ سواء في كاراباخ من سياسات الشيوعيين المعادية للدين. وخلال الحقبة الستالينية، تم إلغاء الكنيسة الأرمنية. وترك أرمن كاراباخ بدون قس أو مطران، الذين كانوا قد قتلوا أو سجنوا أو نفوا. وأغلقت جميع الكنائس والأديرة في كاراباخ. وأصبح يعاقب على إظهار أي جانب من الديانة المسيحية علناً. وعرض أكثر المؤمنين شجاعة حياتهم وحريتهم للخطر باجتماعهم في جماعات صغيرة في بيوت خاصة. كما توقف الإسلام الرسمي عن الوجود في ناغورنو كاراباخ. إذ ترك إغلاق الجوامع الثلاثة في شوشي المسلمين في كاراباخ بدون مكان للعبادة وكان الخيار الوحيد أمام المسلمين الراغبين في ممارسة عقيدتهم بشكل جماعي هو أن يقوموا بذلك في إطار الفرق الصوفية شبه السريّة.

استمرت عملية تتريك ناغورنو كاراباخ تحت الحكم السوفييتي. ففي حين لم يعد الكرملين معادياً للأرمن أكثر من القومية الأذارية، نجحت السلطات الأذارية في باكو في تحقيق أهدافها الوطنية تحت ستار الشيوعية. فخلال الحقبة السوفييتية تحول الميزان الديموغرافي بشكل ملحوظ لصالح الأذاريين. وكانت العوامل الرئيسة لذلك تكمن في هجرة الأرمن من كاراباخ وهجرة الأذاريين

إليها بالإضافة إلى ارتفاع معدل الولادة عند الأذاريين. ففي عام 1921م عندما منحت كاراباخ إلى أذربيجان كان 94,4٪ من السكان من الأرمن. ومنذئذ، أخذت نسبة الأرمن بالانخفاض بشكل مضطرد. وبحلول عام 1979م. انخفضت إلى 75,9٪. وقد ارتبط التحول في التوازن الديموغرافي في ناغورنو كاراباخ بعملية التتريك الموازية في باقي مناطق جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية حيث كانت الجاليات غير التركية تتقلص بسرعة. وفي عام 1959م، كان عدد سكان أذربيجان 2,5 مليون أذري أو 67,5٪ من السكان، بينما ازداد في عام 1979م إلى 4,7 مليون أو 78,1٪ من السكان. وخلال الفترة نفسها، انخفض عدد سكان أذربيجان الأرمن من 11,9٪ إلى 7,9٪ وكان أكثر ما أثار قلق أرمن كاراباخ إفراغ ناخيتشيفان من سكانها الأرمن وكانت ناخيتشيفان ـ وهي منطقة متنازع عليها تقع بين إيران وأرمينيا وتركيا ـ قد منحت إلى أذربيجان من قبل السوفييت، التي لم يكن لها حدود مشتركة وكان الأرمن يشكلون 40٪ من سكان ناخيتشيفان في عام 1917م. وفي عام 1987م أصبحت ناخيتشيفان خالية تقريباً من الأرمن ما عدا قريتين أرمنيتين فقط. وخشي الأرمن أن تنجح السلطات الأذارية خلال جيل واحد في جعل أرمن كاراباخ يتعرضون للمصير ذاته الذي تعرض له أرمن ناخيتشيفان. واستناداً إلى البروفسورين بينيجسين وويمبوش، فإن إضعاف موقف الأقليات القومية في أذربيجان، يمنح الأذاريين الوطنيين "الشعور بأننا (أي الأذاريون) أقوى منهم (الأجانب) وبأن "الوقت يعمل صالحنا". (بينيجسين وويمبوش، ص145).

لم يقبل أرمن كاراباخ أبداً التسوية التي فرضها عليهم ستالين في عام 1921م. إذا لم يتوقعوا منها سوى الموت البطيء لهم. وشهدت العشرينيات عمليات منظمة سريّة تدعى "كاراباخ لأرمينيا". وقد وزعت منشورات في أنحاء كاراباخ محتجة على السياسات القمعية للسلطات السوفييتية والأذارية وتدعو إلى توحيد أرمينيا. وتمكن البوليس السري لستالين بتصفية المنظمة بنجاح في عام 1927م. وفي الثلاثينيات والأربعينيات كانت بعض الشخصيات الشيوعية الأرمنية البارزة تطالب من حين لآخر في الكرملين بناغورنو كاراباخ، لكن بدون نتائج جيدة. وقد أسفر التراخي في الرعب السوفييتي بعد موت ستالين عن مطالبات عديدة وأكثر انفتاحاً إلى الزعامة السوفييتية في موسكو. وفي عام 1963م. وقّع 2500 أرمني من كاراباخ بشجاعة التماساً يدين

المسؤولين الأذاريين بمحاولة تدمير العنصر الأرمني في كاراباخ وطالبوا بضمها إمّا إلى أرمينيا أو إلى الفيدرالية الروسية. وانتقاماً لذلك قتل الأذاريون ثمانية عشر أرمني من سكان كاراباخ. وأرغم كثير من المفكرين الأرمن على الهرب من كاراباخ تحت التهديد بالقتل.

إحياء قضية كاراباخ ـ الإنفتاح وإعادة البناء

كان لشعار ميخائيل غورباتشوف "الانفتاح وإعادة البناء" نتائج كبيرة جداً في أنحاء العالم. ففي الغرب نظر إليه كدلائل لنهاية أكثر من أربعة عقود من الحرب الباردة. وفي داخل الاتحاد السوفييتي، نظر إلى هذين الشعارين على أنهما دلائل بأن الكرملين مستعد لإدخال تعديلات جوهرية على النظام الديكتاتوري المتشدد الذي وضعه لينين وستالين. وقد شجعت توقعات إعادة البناء الاعتقاد بأنه يمكن تصحيح مسار الظلم الذي ألحق بالقوميات السوفييتية المقهورة. فقد أطلق "الانفتاح" و"إعادة البناء" قوى نابذة قوية في أرجاء الاتحاد السوفييتي. وكان غورباتشوف يهدف لتعزيز وإحياء الامبراطورية السوفييتية بواسطة "الانفتاح وإعادة البناء". إلا أنه فقد السيطرة في النهاية على القوى القومية التي انطلقت. وفشلت جهود الرئيس السوفييتي المبذولة لإعادة البناء في التغلب على تحفظ النظام الفطري والتماشي مع تفجر المشاعر القومية التي أدركتها عملية الانفتاح. وبرزت أقوى تلك المشاعر بين أرمن ناغورنو كاراباخ. وكان رد السلطات السوفييتية والأذارية يماثل كثيراً رد فعل الأتراك التقليدي تجاه طموحات الأرمن لنيل الحرية. فأخذت عملية الإبادة الجماعية تتسارع مرة أخرى.

كان الأرمن بالإضافة إلى اللتوانيين واللاتفيين والإستونيين من بين أول الأقليات التي استغلت الحرية التي قدمها الانفتاح للضغط والقضاء على التسويات التي فرضها ستالين بشكل قسري. وخلال عام 1987، أرسل القادة الأرمن احتجاجاً تلو الاحتجاج إلى موسكو. وفي تشرين الأول، رفع العديد من أرمن كاراباخ دعاوى قضائية ضد السلطات الأذارية في باكو "لارتكابها إبادة جماعية ضد السكان الأرمن بين عام 1921م وعام 1987م" (ووكر، عام 1991م، ص121). وبعد أن أحس بدنو فرصة تاريخية للهروب من قبضة أذربيجان، اتخذ مجلس السوفييت الأعلى لمنطقة ناغورنو كاراباخ المستقلة ذاتياً، الذي عادة ما يكون سلساً، قراراً في 20 شباط عام 1988م يدعو فيه أرمينيا وأذربيجان للسعي إلى التوصل إلى "قرار إيجابي يتعلق بنقل المنطقة من

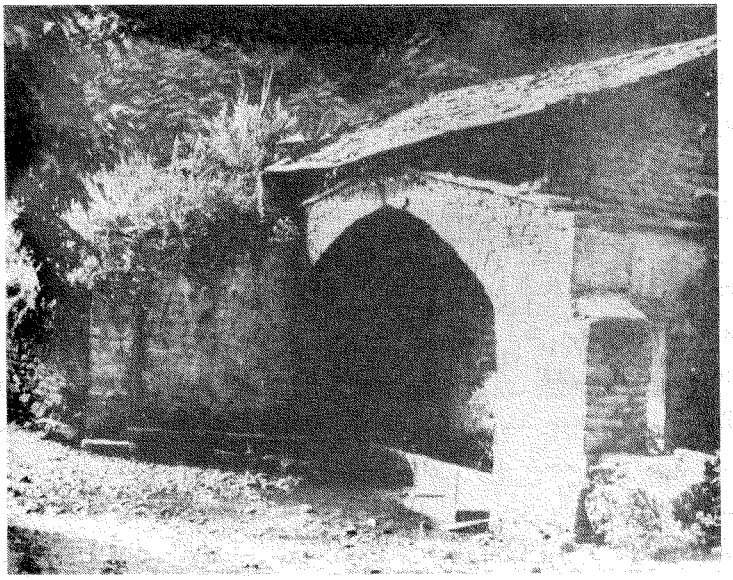

مشهد من قرية في كاراباخ

جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية إلى جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفييتية" (ووكر عام 1991م، ص123). وكان لهذا القرار تأثير صاعق سواء في داخل كاراباخ أم في خارجها.

وشعر أرمن كاراباخ بالنشوة، بينما انتاب الأذاريين الغضب. وسرعان ما تدهورت العلاقات بين العرقين. وبعد عدة أيام من اتخاذ قرار التوحيد، خرج المتظاهرون الأذاريون الغاضبون وساروا نحو ستيباناكيرت حيث واجهوا حشداً من الأرمن والشرطة. وقتل أذاريان في المواجهة. أحدهما أصيب بحجر والآخر بطلقة نارية من شرطي أذاري.

ودعمت أرمينيا بشدة أمنيات الأغلبية الأرمنية في ناغورنو كاراباخ. وخرجت مظاهرات ضخمة دعماً للقرار تراوحت أعداد المشاركين فيها من 700000 إلى مليون. وشكل 15 مفكراً بارزاً في يريفان "لجنة كاراباخ" التي، بالإضافة إلى قيامها بحملات بالنيابة عن كاراباخ، اتخذت تدريجياً دور المعارضة الأرمنية الرئيسة للحكم الشيوعي. وأرسل كاتبان أرمنيان وهما سيلفا كابوتيكيان والدكتور زوري بالايان إلى موسكو للاجتماع بغورباتشوف وعدد آخر من كبار المسؤولين.

أعمال العنف ضد الأرمن

سومغاييت: رافق النشاط القوي الذي كان سياسياً سلمياً بشكل رئيس في كاراباخ ويريفان استئناف أعمال القتل. ففي 27 شباط، أعاث الأذاريون المتعصبـون فساداً في سومغاييت لمدة ثلاثة أيام، وهي بلدة صناعية جديدة تبعد 20 ميلاً عن باكو، وقتلوا عدداً من الأقلية الأرمنية الكبيرة في البلدة وأتلفوا ممتلكاتهم. وحسب ما جاء في المصادر السوفييتية الرسمية فقد قتل 32 شخصاً، إلا أن تقارير الشهود العيان تقول إن العدد الحقيقي يصل إلى المئات. وتشهد مارينا بوغوصيان، التي نجت من مجزرة سومغاييت بقولها:

"في يوم الجمعة، في السادس والعشرين، حذرني أحد أصدقائي من البقاء هناك خلال عطلة نهاية الأسبوع. ومع ذلك ذهبت إلى العمل ـ كنت أدرّس في مدرسة للحضانة ـ وعدت إلى البيت ظهراً. وفي بعد ظهر ذلك اليوم، كانت هناك مسيرة أذربيجانية أخرى في وسط بلدة سومغاييت، ثم خرجت حشود من الناس في المنطقة التجارية حيث يعمل الأرمن، وهشموا زجاج النوافذ والأشياء الأخرى. وسمعت نداءات تقول: "الموت للأرمن! الدم بالدم". وكان معظمهم من الشباب ولم توقفهم الشرطة. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، بعد أن أخلدنا إلى النوم، سمعنا صراخاً في الشارع، ورأيت من النافذة آلاف الأشخاص يسيرون في الشارع، وكان معظمهم متشحاً بالسواد ويحملوان عصياً ويرفعون أعلاماً تركية على ضوء القمر. وكانوا يهتفون "اخرجوا! الأرمن يقتلون شعبنا وأنتم جالسون هنا! يجب أن نطهر مدينتنا!" وفي اليوم التالي، ذهبنا لزيارة إحدى جاراتنا في المبنى لحضور حفلة عيد ميلادها. وتحدثنا عما رأيناه، لكننا ظننا أنهم من المشاغبين الشباب. ثم جاء صبي من الجيران شاحباً. وسألناه عما يحدث وقال: ألا تعرفون؟ إنهم يقتلون ويحرقون الناس هناك وهم يقتحمون بيوت الناس. اتصلنا بالشرطة فقالوا: "ابقوا حيث أنتم. فأنتم لستم الوحيدين ولا يمكننا مساعدتكم". وجاءتنا جارة روسية ودعتنا للانتظار في شقتها. وكان معها ثلاث عائلات أخرى ـ 15 شخصاً. وأمضينا الليلة عندها. وجاء الرعاع وقرعوا باب دارنا وخرجت وقالت لهم إننا غير موجودين ـ وإننا انتقلنا منذ أسبوع. وبعد ذلك مروا عدة مرات واقتحموا بيوت الجيران. وفي ذلك الوقت لم يكن أرمني في البيت. لذا لم تحدث أعمال قتل (في العمارة) إلا أنه حدث الكثير من الدمار. وكانوا يرمون الصحون والكراسي من النافذة. ولم يكن عندي أمل بالبقاء على

قيد الحياة واعتقدت أنهم سيقتلوننا إن عاجلاً أم آجلاً. ثم عاد الحشد، في يوم الاثنين وصل الجنود بدباباتهم وأخذونا إلى مبنى لجنة الحزب" (كلن 1991، ص66 - 67).

وسمح لمارينا بوغوصيان وعائلتها بالحصول على النقود وبضعة ممتلكات قبل أن تذهب إلى يريفان. ونجا معظم سكان سومغاييت الأرمن. وكان قد التجأ كثير منهم، مثل الآنسة بوغوصيان إلى جيرانهم الروس والأذاريين الشجعان. إلا أن مصير الذين وقعوا في أيدي الرعاع كان قاسياً. فقد كانت لولا أفاكيان التي تبلغ من العمر 37 سنة وتقطن في سومغاييت، إحدى أولئك التعساء. فبعد أن أمسكها الحشد الأذاري، جردت من ثيابها وأرغمت على الرقص قبل أن يقطع ثدياها ويحرق جسمها بالسجائر. وقد اغتصبت ثم قتلت. وألقي القبض على العديد من الأذاريين وأدينوا باشتراكهم في أعمال الشغب.

ملاحظة: في 2 آذار 1993، أعلن مكتب النائب العام في أذربيجان بأنه أوصى بأن يمنح الرئيس ألشي بي عفواً للمتهمين بأعمال العنف ضد الأرمن خلال مجزرة سومغاييت، وذكر مكتب النائب العام أنه يتوقع أن يتصرف الرئيس وفق توصياته. وفي اليوم نفسه، قدم البرلمان الأذاري اقتراحاً بأن يعلن العفو في 28 أيار عام 1993م - الذكرى الـ74 لتأسيس جمهورية أذربيجان.

كيروفاباد: لم تكن مجزرة سومغاييت سوى الأولى في سلسلة من المجازر المناوئة للأرمن في أذربيجان. ففي 21 تشرين الثاني 1988م، أُخرج 40000 أرمني من ثاني أكبر مدينة في أذربيجان كيروفاباد (إليزافيتبول، كانجا) من بيوتهم وأرغموا على الهرب إلى أرمينيا من قبل الرعاع الأذاريين. ومن الواضح فقد أشعل ذلك تقارير كاذبة ظهرت في الصحافة الأذارية تقول بأن الأرمن في كاراباخ انتهكوا مقبرة مقدسة وأنهم يبنون فوقها مصبغاً ضاراً بالبيئة. ففي واحد من الأحداث التي جرت في كيروفاباد، أرغمت مئات النساء والأطفال للجوء إلى الكنائس وحاول بعض الجنود السوفييت غير المسلّحين حمايتهم. وقتل عدد من الجنود وحظرت وسائل الإعلام السوفييتية جميع المعلومات المتعلقة بالمجزرة في كيروفاباد.

باكو: تزامنت مجزرة كيروفاباد مع نشاط معاد للأرمن في باكو. ففي 18 تشرين الثاني عام 1988م، حكم على أذاري بالإعدام في موسكو لدوره في

مجزرة سومغاييت. وفي اليوم التالي خرجت تظاهرة ضخمة في باكو احتجاجاً على حكم الإعدام. واستمرت هذه التظاهرات بشكل منتظم خلال الأسابيع الثلاثة التالية في باكو. وضمت التظاهرات أكثر من 500000 أذاري. وكان من الشعارات البارزة المرفوعة "الموت للأرمن" و"الأرمن خارج أذربيجان" إلا أنه لم يرق الدم الأرمني في باكو على نطاق واسع إلا في كانون الثاني عام 1990م. ففي 12 كانون الثاني، عشية تظاهرة ضخمة في ساحة لينين في المدينة، سمح للقوميين المتشددين الأذاريين من الجبهة الشعبية ضد الشيوعية في أذربيجان بإذاعة نداءات للدفاع عن سيادة أذربيجان من مطالب الأرمن. وفي الوقت نفسه، بدأت مجموعات من الشبان الأذاريين تتجول في الشوارع وتثير الرعب في صفوف الأرمن وتطالبهم بمغادرة المدينة. وفي 13 بدأت أعمال القتل ولم تتدخل الشرطة. وذكر الأرمني أبراهام غازاريان، محارب قديم ومقيم في باكو منذ عام 1920م: "بدأت المجزرة في العاشر من كانون الثاني. فقد جاء رجل إلى باب داري وقال: غادر أيها العجوز. فقد انتهى زمانك. لقد غادر شعبك ويجب أن تغادر". لو كان وحيداً لكنت طردته، إلا أنهم كانوا ثلاثة. فقلت: "إني رجل عجوز وليس عندي مكان أذهب إليه". وفي الثاني عشر، جاءني حوالي عشرين منهم واقتحموا الدار. حاولت مقاومتهم وصرخت للنجدة. وفي صباح الثالث عشر، توجهت إلى الشرطة وسجلت شكوى. قالوا حسناً ولم يفعلوا شيئاً. بقيت في المنزل وأصلحت الباب بقدر ما أستطيع، لكنه لم يكن ثمة شيء يصلحه. وفي الساعة السادسة من ذلك المساء عادوا ثانية. قرعوا الجرس والباب ورأيت الكثير منهم في الباحة. ارتديت معطفي وذهبت لأفتح الباب. وما إن وصلت هناك حتى سقط عليَّ. ظننت أنهم حطموا الباب بفأس. كانوا أربعة ثم بدا وكأنهم أربعون. ضربوني ورموني على الأرض وأخذوا يركلوني. وكسروا ثلاثة أضلاع لي ورموني على الدرج وفقدت الوعي. وعندما فتحت عيني، رأيتهم يحملون أغراضي ـ السجاجيد والتلفزيون وكل شيء، ومزقت ثيابي وأخذوا وثائقي. ووقف اثنان منهم لمنعي من الهروب. قلت لهم "لماذا تضربون رجلاً عجوزاً؟" فلم يردوا ووضعوني في سيارة وأخذوني إلى دار سينما ورموني في قبو مع آخرين، حيث بقينا لمدة يوم ونصف (كلن، ص69 ـ 70).

وتـم ترحيل السيد غازاريان عبر بحر قزوين إلى تركمنستان على سفينة مع 1500 أرمني آخر، وأخيراً وصل إلى يريفان.

يروي آذادين غولما ميدوف، أذاري شاب شاهد اندلاع العنف ضد الأرمن فيما كان يحضر تظاهرة الجبهة الشعبية في باكو في 13 من الشهر:

"ذهبنا لرؤية ما يحدث، ورأينا هؤلاء الشبان في الشوارع ولا أعرف من هم؟ وأين يعيشون؟ ربما كانوا مدمني مخدرات. وكانوا يحلمون عصياً وهراوات وقوائم بالأرمن وكانوا يريدون اقتحام بيوت الأرمن وطردهم. ولم تفعل الشرطة أي شيء. بل وقفوا يتفرجون. وهذا ما فعله الجنود الذين كان لديهم أسلحة. وطلبنا منهم المساعدة وكان يوجد حوالي اثني عشر جندياً وعشرة منا، وكان حوالي عشرين رجلاً في العصابة، إلا أن الجنود رفضوا تقديم المساعدة وقالوا: "افعلوا ذلك وحدكم فإننا لن نتدخل". (كلن، ص70).

تحركت القوات السوفييتية إلى باكو في 19 كانون الثاني، وأصبحت الحشود المعادية للأرمن معادية للسوفييت وحاصرت مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأذربيجاني. إلا أن المجزرة ضد الأرمن كانت قد تمت، وخلفـت 68 قتيـلاً حسـب الأرقام الرسمية المنخفضة. ولم يبق في باكو سوى 1800 أرمني، يعتقد أن معظمهم متزوج بأذاريين أو سلالة زواجات مختلطة. وخلال أشهر من مجزرة باكو، أصبحت أذربيجان خالية من الأرمن تقريباً.

الحصار

إن ترحيل الأرمن من أذربيجان، تم بموافقة السلطات الأذربيجانية الضمنية إن لم تكن قد خططت هي لها. فقد اعترف أياز مطاليبوف الذي كان آنئذ السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأذربيجاني بأنه كان هناك "بضعة آلاف" من قوات الوزارة في باكو عند اندلاع المجزرة (كلن، ص71) وكانت استراتيجية الحكومة الأذربيجانية تتمثل في استخدام قوتها المحدودة تدريجياً لتكثيف الضغط على الجالية الأرمنية في الجمهورية، في الوقت الذي يمارس فيه الضغط على الكرملين لتطبيق قوة ضخمة على ما اعتبره الانفصاليون الأرمن في كاراباخ. وكان العنف ضد "الرهائن" الأرمن في المدن والقرى الأذربيجانية أحد الوسائل التي لم تعتمد على الدعم السياسي أو المادي من موسكو. وكان

الحصار وسيلة أخرى. ولم تمض فترة طويلة حتى عبر مجلس السوفييت الأعلى لناغورنو كاراباخ عن رغبته في الاتحاد مع أرمينيا حتى بدأت الحكومة في باكو بقطع خطوط التوريدات إلى كاراباخ، وهاجمت الفرق الأذارية المسلحة خطوط المواصلات على الطريقين الذين يربطان أرمينيا بكاراباخ. وفي صيف عام 1989م كان كلاهما مغلق في وجه المرور، بالإضافة إلى الخط الحديدي الذي يصل كاراباخ بالعالم الخارجي. وأصبح أرمن كاراباخ يعتمدون تماماً تقريباً على مواردهم الشحيحة والمعونات التي ترسل إليهم جواً من أرمينيا. إلا أن السلطات الأذربيجانية أبقت الطريق من أذربيجان إلى شوشي مفتوحاً. وهكذا، ففي حين حرم السكان الأرمن من الغذاء والدواء الرئيس، لا زالت تصل الموارد الضرورية إلى السكان الأذاريين والوحدات المسلحة. لقد اشتدّ الحصار حول الأرمن تدريجياً. كما تمت معاقبة أرمينيا اقتصادياً، وخفضت أذربيجان من توريدات الغاز والنفط إلى جاراتها في الغرب.

عمليات الانتقام الأرمنية

كانت ردّة الفعل الأولية للأرمن إزاء مجزرة سومغاييت وحصار كاراباخ صامتة. إذ توجه مئات الآلاف من الأرمن إلى ضريح ضحايا مجزرة عام 1915 - 1916 في يريفان تكريماً لضحايا سومغاييت. وتطلع الأرمن في كل من أرمينيا وكاراباخ إلى موسكو لإيجاد حل. وبقيت التظاهرات والإضرابات التي قام بها الأرمن سلمية بصورة أساسيّة إلا أن العنف بين العرقين اشتعل في ناغورنو كاراباخ في أيلول عام 1988م. وكانت السلطات الأذارية آنئذ تمارس عملية تطهير الأرمن من شوشي بالترحيل. وفي 18 أيلول، نصب الإرهابيون الأذاريون كميناً لباص يحمل أطفال مدرسة أرمنية قرب ستيباناكيرت. ولدى وصول أنباء الحادث، اندفع حشد من الأرمن إلى ساحة الحادث وتبع ذلك إطلاق نار وخلّف قتيلاً وأكثر من 40 جريحاً. وقد آذن استخدام الأسلحة النارية بتصعيد رئيس للصراع. وبعد ذلك تسارعت عمليات طرد الأرمن والأذاريين من منطقة كل منهما.

حدث التهجير الواسع للأذاريين من أرمينيا في خريف عام 1988م. ولم يكن الأرمن سريعين في الرد على مجزرة سومغاييت، إلا أن ضبط النفس الأرمني انهار استجابة لمجزرة كيروفاباد والمظاهرات المعادية للأرمن في باكو، وأرغم الأذاريون في أنحاء أرمينيا على مغادرة بيوتهم. يتذكر موزيب

إيماميلوف المسؤول الحكومي الأذاري في أرمينيا، بأنّ رئيسه في العمل طلب منه أحد الأيام أن يغادر البلاد فوراً:

"قال إنه ينبغي عليّ أن أغادر. قلت: "ماذا يحدث؟ لا يوجد شيء ضدي". وقال إنهم سيقتلوني لأنهم كانوا غاضبين بشأن الأرمن الذين طردوا من كيروفاباد. وفي غضون ساعات، كان هناك عشرة آلاف شخص في الشوارع يهتفون "اخرجوا أيها الأتراك" حاولت أن أتصل بالشرطة واللجنة المركزية في يريفان ومجلس الوزراء. وفجأة لم تعد الهواتف تعمل. جمعت الأشخاص الذين كانوا يعملون معي وقالوا لي إمّا أن أذهب أو سيقتلون أيضاً. ثم أخذوني خارجاً عبر باب خلفي ووضعوني في سيارة. لم تكن سيارتي الفولغا السوداء، بل كانت زيغولي. وكان نائب مدير قسم الشرطة يقود السيارة وأقلني إلى البيت. وأحاط حشد من ألف شخص منزلي وهم يهتفون ويرمون الحجارة. وقدم لنا البوليس الحماية إلا أنهم لم يفرقوا الحشد. واستمر ذلك مدة يومين" (كلن 68).

ثم قاد البوليس إيماميلوف إلى يريفان حيث اشترى بطاقة طائرة إلى باكو، ثم أرسل طائرة مروحية إلى أرمينيا لجلب عائلته.

في 7 كانون الأول عام 1988م أصيبت أرمينيا بهزة أرضية قوية. وقتل ما لا يقل عن 25000 شخص وتشرد 500000. وأصبح 10000 طفل يتيماً. وقد آلم هذا العدد الضخم من القتلى والدمار الشعب الأرمني وفاقم من التوتر السياسي. وكان أغلب الضحايا من اللاجئين من أذربيجان الذين استقروا في شمالي أرمينيا قرب مركز الزلزال. وقد أدى التوتر العاطفي المتسبب عن الكارثة الطبيعية إلى تسريع عملية ترحيل الأذاريين من أرمينيا. وخلال الأشهر الثمانية عشرة التالية تم إخراج الـ 300000 ونيف أذاري من أرمينيا.

ردّة فعل موسكو

إن اندلاع الصراع في كاراباخ في شباط عام 1988م فاجأ القيادة السوفييتية وكانت ردّة فعل غورباتشوف الأولى تتمثل في كسب الوقت. ففي خلال اجتماعه مع ممثلي الأرمن سيلفا كابوتيكيان وزوري بالايان في 27 شباط، أعار السكرتير العام أذناً صاغية. ووعد بأنه سيشرف شخصياً على تنفيذ الإصلاحات في ناغورنو كاراباخ كجزء من حل عام لمختلف المشاكل القومية في الاتحاد السوفييتي. ووعد غورباتشوف، حسب ما ذكرت كابوتيكيان، أن

يتأكد بأن "تتلقى الجمهوريات المستقلة ذاتياً مزيداً من الحرية" واختتم حديثه بالوعد "بخلق ظروف هامة لازدهار الثقافة والاقتصاد" (كرن، ص65). إلا أن غورباتشوف لم ينفذ وعده بإحداث آلية دستورية يمكن من خلالها تحقيق رغبة سكان ناغورنو كاراباخ في الاتحاد مع أرمينيا.

ونجح تكتيك غورباتشوف. وكانت الأنباء بشأن التزام غورباتشوف بإصلاحات غير محددة كافية لتهدئة الهياج السياسي في ستيباناكيرت ويريفان وعُلّقت آمال عريضة على غورباتشوف والتزامه بإعادة البناء.

عندما وضع مفهوم غورباتشوف أمام الامتحان في ناغورنو كاراباخ ثبت أنه فارغ، إذ لم يكن بوسعه أن يقدم الشيء الكثير للقوميات المقهورة في الاتحاد السوفييتي. وفي 21 آذار، كشف الكسندر ياكوفليف، الرجل الثاني في الكرملين ومشارك غورباتشوف في هندسة الإصلاحات كشف إلى أندريه ساخاروف عن حدود إعادة البناء. وعندما سأله العالم الفيزيائي والداعي إلى حقوق الإنسان المعروف لماذا لم تعلن الكرملين على الفور بأن رغبات أرمن ناغورنو كاراباخ مسوغة وأنها ستتحقق أجاب ياكوفليف: "لا يمكن تغيير البنية القومية للدولة بأي شكل. إذ أن أي تعديل سيخلق سابقة خطيرة، فهناك نقاط كثيرة يمكن أن تنفجر فيها العواطف العرقية. بالإضافة إلى ذلك، فإن حالة ناغورنو كاراباخ معقّدة إلى حدٍ غير معقول. إن الأربعمائة ألف أرمني الذين يعيشون في أذربيجان هم رهائن في جميع النوايا والأهداف. إن القوقاز غارق بالأسلحة، وهي تأتي عبر الحدود وبكميات ضخمة. وعود كبريت واحد يكفي لإشعال عاصفة من النيران" (ساخاروف، ص49).

بعد يومين من اجتماع ساخاروف مع ياكوفليف، اتخذت رئاسة المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتي قراراً يرفض ففيه نقل ناغورنو كاراباخ إلى أرمينيا. وكان القرار ماركسياً ـ لينينياً نموذجياً. وتعهدت الرئاسة على نحو غامض "بحل المشكلات الملحة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية" في ناغورنو كاراباخ. إلا أنه بدلاً من البحث عن حلول تستند على إرادة الشعب، أعلنت الرئاسة أنه "ليس من المقبول السعي لحل المشكلات القومية والإقليمية المعقدة بممارسة الضغط على أجهزة الدولة..." كما هددت الرئاسة بشكل خفي "بإجراءات إدارية وعقابية" ضد الذين يتصرفون بشكل يخالف سياستها. وكان أن حلت الرئاسة لجمهوريتي أرمينيا وأذربيجان "لتحسين عملهما السياسي والتعليمي بين السكان، مستخدمين على الدوام المبادىء اللينينية كأساس

لسياسة القوميات والصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفييتي" (ووكر 1991، ص131).

كان لقرار الرئاسة تأثير قوي في أرمينيا وأذربيجان. ففي أرمينيا انهارت أوهام البريسترويكا أو إعادة البناء. وأصبح من الواضح في كل من كاراباخ وأرمينيا أن إنقاذ كاراباخ الأرمنية من أذربيجان لن يأتي كهدية من الزعامة السوفييتية. وقد شجع قرار الرئاسة السوفييتية القادة الأذاريين على تكثيف جهودهم لتحطيم آمال أرمن ناغورنو كاراباخ. لذلك اعتبرت السلطات الأذربيجانية في باكو الأجهزة القمعية المحافظة السوفييتية ـ أي المخابرات السوفييتية ووزارة الداخلية والجيش ـ حلفاءها الطبيعيين ضد الأرمن الذين كانوا يسعون جاهدين لقلب تسوية ستالين حول قضية كاراباخ.

أرغم زلزال كانون الأول عام 1988 م غورباتشوف ثانية بالاهتمام بموضوع كاراباخ. وقد أرغم الزعيم السوفييتي على قطع رحلة له إلى الولايات المتحدة وزيارة مشهد الكارثة. وبدلاً من إثارة عواطفه، كان لمأساة الأرمن تأثير سلبي عليه. يتذكر أندريه ساخاروف:

"لم تسر رحلة غورباتشوف إلى منطقة الكارثة بشكل حسن. فقد استمع إلى خطب رنانة من أناس بائسين متألمين لم يبق لديهم شيء يخسرونه. فقد كان يأمل أن الزلزال سيخلصه على الأقل من قضية كاراباخ، إلا أن ذلك لم يحدث. وللأسف، فقد كان رد فعل غورباتشوف مثيراً للحنق ـ بل إني أدعو ذلك حنقاً طفلياً ـ وليس حساساً بشكل كاف للظروف المأساوية. فقد تحدث عن رجال ملتحين، ولم يدر أن اللحية في أرمينيا دليل على الحزن" (ساخاروف، ص79).

عقب زيارة غورباتشوف غير المرضية إلى أرمينيا، اعتقل زعماء لجنة كاراباخ المعارضة في محاولة يائسة لدعم سلطة الحزب الشيوعي في أرمينيا الآخذ في الأفول. وتمثلت خطوة غورباتشوف التالية في تعليق مجلس السوفييت الأعلى لناغورنو كاراباخ. وعقب قراره لصالح الاتحاد مع أرمينيا في شباط عام 1988م، أبدل مجلس السوفييت الأعلى لكاراباخ قيادته المعينة من باكو بقيادة تهدف لإنهاء خضوعها لأذربيجان. وفي 12 تموز، صوتت لفصلها عن أذربيجان، وحكمها دون الرجوع إلى السلطات الأذارية في باكو. وعلى هذا ففي 12 كانون الثاني عام 1989م، وضع الكرملين ناغورنو كاراباخ تحت حكمه المباشر. ووُضعت إدارة كاراباخ في أيدي لجنة مؤلفة من تسعة أعضاء برئاسة أركادي

فولسكي الروسي. وكانت اللجنة مسؤولة مباشرة تجاه الحكومة المركزية في موسكو. إلا أنه في حين تجاوز هذا الترتيب باكو، أكدت السلطات السوفييتية مرة أخرى على أن كاراباخ تبقى جزءاً من أذربيجان.

فشل الحكم المباشر من موسكو في إعطاء أكثر من تخفيف مؤقت للتوتر بين الأرمن والأذاريين. وفي حين قدمت اللجنة بعض التنازلات للأرمن ـ من قبيل عودة عدة قساوسة إلى كاراباخ ـ حُرم سكان ناغورنو كاراباخ من أي شكل من أشكال التمثيل الديمقراطي. وفي 16 آب عام 1989م، عقد ممثلو أرمن كاراباخ اجتماعاً دستورياً وأنشؤوا مجلساً وطنياً للتعبير عن آراء الأرمن. ووقف المجلس الوطني كمنافس للجنة الخاصة التي فرضها السوفييت. وحاول الكرملين إنهاء الطريق المسدود في ناغورنو كاراباخ برفض اللجنة الخاصة وإعادة ناغورنو كاراباخ إلى الحكم الأذاري في 28 تشرين الثاني عام 1989م.

إن قرار إعادة ناغورنو كاراباخ إلى أذربيجان آذن ببداية جهد منسق بين المخابرات السوفييتية (KGB) والقيادة الشيوعية لأذربيجان لتدمير الجالية الأرمنية. وألقي القبض على أعضاء المجلس الوطني لناغورنو كاراباخ في 19 كانون الثاني عام 1990م. وبعد عشرة أيام، وصل وفد مؤلف من أربعة من المسؤولين الأذربيجانيين إلى كاراباخ لترسيخ سلطتهم. وكان يرأس الوفد فيكتور بوليانيشكو، السكرتير الثاني للحزب الشيوعي الأذربيجاني، وهو ضابط من ضباط المخابرات الذي يذكر أنه أشرف على تدمير القرى في أفغانستان. وفي يوم وصول بوليانيشكو إلى كاراباخ، فرضت رقابة مشدّدة وأغلقت الصحيفة اليومية الأرمنية الوحيدة في كاراباخ. وفي خلال أسبوع واحد، زُجّ عشرات من زعماء الأرمن في السجن بأوامر من بوليانيشكو. وفي 2 شباط، هاجمت وحدات أذارية قرى أرمنية في مقاطعة شاهوميان. وفي اليوم التالي، تلقى أرمن قريتين في المقاطعة إنذاراً نهائياً من الجبهة الشعبية الأذربيجانية بمغادرة بيوتهم لكي يستقر فيها اللاجئون الأذاريون. ودعم حكم بوليانيشكو قوات وزارة الداخلية بقيادة اللواء سافونوف ووحدات OMON (قوات وزارة الداخلية الأذربيجانية أو التي تعرف بقوات "القبعات السوداء") بقيادة وزير الداخلية الأذربيجانية وازدادت حدة الهجمات على القرى الأرمنية بحجة التفتيش عن الأسلحة وفي 25 أيار عارض 3000 شخص سلمياً في ستيباناكيرت التكتيكات المسلحة للسلطات السوفييتية والأذارية. وفرّقت القوات السوفييتية المظاهرة بالهراوات. وفي آب دخل 2000 أذاري مسلح

ستيباناكيرت وأخذوا يفتشون البيوت بيتاً بيتاً واعتقلوا الناس اعتباطاً. وفي 18 تشرين الثاني، هاجمت القوات الأذارية أربع قرى أرمنية قرب ممر لاجين.

في نهاية عام 1990م، أدلى عامل اجتماعي أرمني بتصريح حول الظروف السائدة في كاراباخ إلى منظمة هلسنكي وتش لحقوق الإنسان في نيويورك بما يلي:

"قطعت خطوط الهاتف في العاصمة ستيباناكيرت وسممت المياه بانتظام، ووضع الأذاريون مياه المجاري والبكتريا في مياه الشرب. بالإضافة إلى ذلك، قطعت الطرق إلى القرى ـ خط إمداد الغذاء إلى العاصمة ـ وكانت الحكومة الأذربيجانية تعمل والحكومة السوفييتية تعلّم. إن القوات السوفييتية والمليشيا الأذارية تعمل سوية... ويجري البرنامج الأذاري لترحيل السكان بشكل منتظم في شاهوميان وخانلار وكامو وأذاد وبيرتاتسور، وبلغ عدد اللاجئين 10000 لاجىء أرمني معظمهم ذهب إلى ستيباناكيرت أو أرمينيا المفعمتين بالأعباء. وفي الوقت نفسه كانت البيوت الأذارية تنمو بسرعة في أنحاء المنطقة سعياً من السلطات الأذارية لتغيير ديموغرافية السكان" (باليان، ص55).

انتهى عام 1990 م وشبح المجزرة يخيّم على المجتمع الأرمني في ناغورنو كاراباخ.

بعثة ساخاروف

تطابق اندلاع الأزمة في ناغورنو كاراباخ في شباط عام 1988 مع أول سلسلة من الشكوك الجادة التي أطلقها الفائز بجائزة نوبل للسلام أندريه ساخاروف بشأن سياسة إعادة البناء (البريسترويكا) التي نادى بها غورباتشوف. فقد رأى في سياسة الكرملين حول كاراباخ التي اعتبرها "غير عادلة، ومن طرف واحد واستفزازية"، بذور فشل إعادة البناء (ساخاروف، ص46). وقد أذهله عدم اعتبارها الصارخ لمبادىء حقوق الإنسان الرئيسة. فإذا كان غورباتشوف ينوي إعادة بناء الاتحاد السوفييتي على أساس المبادىء التي حدّدت سياسته المتعلقة بناغورنو كاراباخ، وقد كانت النظرة قاتمة جداً، حسبما رأى ساخاروف. وخلال شهر من مجزرة سومغاييت، كتب ساخاروف احتجاجاً إلى غورباتشوف وقدّم عريضة لإنهاء الحكم الأذربيجاني على ناغورنو كاراباخ في اجتماع مع عضو مكتب الحزب الشيوعي الكسندر ياكوفليف.

تمهيداً لجلسة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى حول ناغورنو كاراباخ المزمع

عقدها في تموز عام 1988م، بدأ ساخاروف حملة لإنهاء خضوع كاراباخ إلى أذربيجان، وكإجراء مؤقت، وضع إدارتها تحت إشراف السلطات المركزية في موسكو. وفي أول ظهور له على التلفزيون السوفييتي منذ إطلاق سراحه من إقامته الجبرية في عام 1986م، تحدث المنشقّ السابق حول ناغورنو كاراباخ من البرنامج الشعبي "العجلة الخامسة". إلا أنه قطعت جميع ملاحظاته المتعلقة بالصراع ولم تذع. وأكد ياكوفليف، الذي كان أكثر أعضاء القيادة السوفييتية تقدمية، أكد لساخاروف بأن الحزب يحتفظ بحق مراقبة ومنع المعلومات التي تعتبر "خطيرة" بموجب الانفتاح.

إن النتيجة المشؤومة لجلسة الرئاسة في تموز لم تردع ساخاروف عن العمل من أجل تسوية عادلة لقضية كاراباخ والتي اعتبرها اختباراً بمصداقية إصلاحات غورباتشوف. وقد حثته مجازر كيروفاباد وأعمال الترحيل التي تلت ذلك من أذربيجان وأرمينيا على تكثيف جهوده. وفي خلال سفره إلى الولايات المتحدة في تشرين الثاني عام 1988م، حذّر ساخاروف من أن "الشعب الأرمني يواجه مرة أخرى التهديد بالإبادة الجماعية" ودعا السلطات السوفييتية إلى تنفيذ برنامج يتألف من أربع نقاط:

1 ـ نشر معلومات كاملة وموضوعية حول الأحداث الجارية في أذربيجان وأرمينيا والسماح للصحفيين بالعمل في المنطقة دون قيود ـ أي التطبيق الحقيقي والفعلي للانفتاح.

2 ـ وضع قوات كافية في أذربيجان للدفاع عن الشعب الأرمني.

3 ـ السماح لأرمن ناغورنو كاراباخ وأذربيجان بتنظيم وحدات للدفاع عن نفسها.

4 ـ إنهاء سيطرة أذربيجان على إدارة ناغورنو كاراباخ وتطبيق إشراف إداري مؤقت من قبل الحكومة المركزية في موسكو (باليان، 1991، ص22 ـ 23).

وفي كانون الأول عام 1988م، أطلع ساخاروف الأمين العام للأمم المتحدة بيريز دي كويلار والرئيس الفرنسي ميتران في باريس حول ناغورنو كاراباخ وشجّعهما على العمل من أجل حل عادل على المستوى الدولي. وفي نهاية الشهر، قاد ساخاروف مجموعة من الأكاديميين في بعثة لتقصي الحقائق إلى أذربيجان وأرمينيا وناغورنو كاراباخ. وكان أحد أهداف البعثة التوصل إلى ردود أفعال لخطة سلمية تدعو كلاً من أرمينيا وأذربيجان لمبادلة الأراضي على أساس جنسية أغلبية السكان.

اجتمعت بعثة ساخاروف في باكو مع أعضاء أكاديمية أذربيجان للعلوم وعدد من المفكرين الأذاريين البارزين، وسرعان ما انحدر مستوى الاجتماع من عملية دعائية على النموذج السوفييتي إلى مباراة من الصراخ. يقول ساخاروف: "كانت الجلسة محبطة. فقد تكلّم العلماء والكتّاب واحداً إثر الآخر مطولاً، بعضهم بشكل عاطفي والآخرون بشكل عدواني، حول صداقة الشعوب وقيمتها. وأكدوا لنا أنه لا توجد مشكلة حقيقية في ناغورنو كاراباخ، وإنها كانت على الدوام منطقة أذربيجانية وقد اخترعها أبيل أغانبيكيان (وهو أرمني، وواحد من كبار المستشارين الاقتصاديين لغورباتشوف) والصحفي زوري بالايان وأقاها المتطرفون حية. علاوة على ذلك، فقد تم تصحيح جميع أخطاء الماضي بعد جلسة تموز التي عقدها رئاسة مجلس السوفييت الأعلى: وكل ما كان يحتاجه الأمر من أجل إعادة السلام التام هو زج هانريك بوغوصيان، السكرتير الأول لناغورنو كاراباخ المنتخب حديثاً.

ولم يود الحضور الاستماع إلى باتكين وزوبوف (اثنان من مرافقي ساخاروف) عندنا تحدثا عن إجراء استفتاء. فقد كانت تتم مقاطعتهم باستمرار. وكان الأكاديمي ضياء بنياتوف (مؤرخ أذاري ووطني متشدّد) عدوانياً على نحو خاص، وعند الحديث عن سومغاييت، حاول تصوير المجزرة التي جرت هناك كاستفزاز بدأه المتطرفون الأرمن والمضاربون في السوق السوداء الذين يسعون لتفاقم الوضع. وأكد على مشاركة أحد الأشخاص باسم أرمني. وعندما قاطع باتكين بطريقة مهينة، طلبت من بنياتوف النظام.. وقد أيدتني لوسيا (زوجة ساخاروف، إيلينا بونر) بشدّة، ثم هاجمها بونيتاتوف.. وصرخ بأنها قد أحضرت لأخذ ملاحظات قائلاً: "لذا فاجلسي واكتبي ولا تتحدّثي". (ساخاروف، ص81).

وفي اليوم نفسه، واجهت بعثة ساخاروف مجموعة من اللاجئين الأذاريين نقلت من أرمينيا. وجمع عدة مئات منهم في القاعة، ولاحظ ساخاروف أن المتحدثين منهم قد اختيروا بعناية. وتركّزت رواياتهم على الضرب والحرق والنهب والترحيل. وشهد كثير منهم على أن هذه الأحداث جرت بمساعدة الشرطة الأرمنية ومسؤولي الحزب الشيوعي واختتم ساخاروف بقوله إنه رغم التلفيقات الواضحة، فقد أحيقت بالمهجّرين الأذاريين "مأساة كبيرة".

وفي اليوم التالي أجرت البعثة محادثات مع السكرتير الأول المعيّن حديثاً للحزب الشيوعي الأذربيجاني عبد الرحمن فيزيروف. وكان الاجتماع حديث

من جانب واحد من طرف فيزيروف كثير الكلام مدّعياً أنه عمل على تحسين العلاقات بين الأجناس وأنكر وجود أية مشكلات غير محلولة مع الأقلية الأرمنية في أذربيجان. وعند نهاية الاجتماع تدخّلت إيلينا بونر وتحدّثت من القلب:

قالت : "إنك تتحدث عن الصداقة مع الأرمن. لقد عانوا مأساة وطنية كبيرة. فقد فقد آلاف الناس أقرباءهم وممتلكاتهم. إن وجود الشعب الأرمني مهدد بالخطر". ثم اقترحت: "إن الشعب الشرقي مشهور بكرمه. اعملوا شيئاً نبيلاً ـ أعطوا كاراباخ لأرمينيا، هدية لصديق محتاج. وسوف يكن العالم كله احتراماً لهذا العمل. وستتذكره أجيال عديدة" (ساخاروف ص83 ـ 84).

كشف رد فيزيروف عن موقف قوي ضد تسوية سلمية للصراع. يقول ساخاروف "لقد قال بازدراء إن الأرض لن تعطى. إنها محتلة: (وقد يكون قد أضاف "بالدم" إلا أني لست متأكداً تماماً) (ساخاروف ص84).

ومن باكو غادرت بعثة ساخاروف بالطائرة إلى يريفان. ووصلت بعد أسبوعين من الزلزال إلى أرمينيا. وكان لهذه المأساة تأثير عميق على الأرمن. فقد وجدهم ساخاروف "في حالة من الصدمة والذعر، وحالة من العصاب الجماعي تقريباً" (ساخاروف، ص84). وكما حدث في باكو، التقى ساخاروف في يريفان بكبار القياديين السياسيين في يريفان والشخصيات الأكاديمية البارزة. إلا أن محور اهتمام ساخاروف تركّز حول عمليات الإغاثة بعد الزلزال والاستشارات حول سلامة المفاعل النووي الأرمني ميدازمور وليس كاراباخ. إلا أنه تمكن من التأكد بأن الأرمن ليسوا على استعداد للتخلي عن شوشي لأذربيجان كجزء من تسوية وسط، وأن المهجّرين الأرمن من أذربيجان تعرضوا لمعاملة مرعبة.

غادرت بعثة ساخاروف بالطائرة من يريفان إلى ناغورنو كاراباخ. وكان نموذج الاجتماعات مشابهاً لما حدث في باكو ويريفان. ولم يسمح لمرافقين من مرافقي ساخاروف هما غالينا ستاروفيتوفا خبيرة علم الأجناس وزوري بالايان بمرافقته للاجتماع مع الأذاريين في شوشي من أجل سلامتهما. وتمكن أركادي فولسكي مضيف ساخاروف من الحزب الشيوعي بضبط العواطف بتذكيره من حين لآخر للأذاريين الثائرين عن الأعمال السيئة التي اقترفها أفراد من مجتمعهم وبعد الاجتماع في شوشي، أخذ ساخاروف ومجموعته إلى الملجأ في توبخانا لبحث المزاعم التي أسهمت في تفجير مجزرة كيروفاباد والمظاهرات الضخمة

المعادية للأرمن في باكو في تشرين الثاني عام 1988م. وكان قد زعم أنه في توبخانا قد انتهكت المقبرة المقدسة من قبل الأرمن. وأن مصنعاً نووياً ضاراً بالبيئة على وشك البناء حسب ما جاء في الصحافة الأذربيجانية. وفي توبخانا شاهد ساخاروف التلال الجميلة التي تتناثر فوقها البيوت الريفية التي يمتلكها الصفوة الأذاريون ورأى هضبة جرداء نوعاً ما حيث سيبنى فوقها مخيم لأطفال العمال العاملين في مصنع للمعادن قريب منها. واكتشف ساخاروف "عدم وجود حديث عن بناء أي شيء ضار بالبيئة في توبخانا أو تهديم مقبرة لا وجود لها". وانزعج ساخاروف من أن مثل هذه الإشاعة تؤدي إلى مثل هذه النتائج المميتة. واختتم ساخاروف زيارته إلى ناغورنو كاراباخ باجتماع مع الزعماء الأرمن المحليين. وأخبروه أنهم يعارضون اقتراح فصل شوشي عن ناغورنو كاراباخ، التي في نظرهم، ستكون بمثابة اعتراف لشرعية "تطهير" البلدة من الأرمن. كما عبّر قادة المجتمع الأرمني عن توجسهم إلى اقتراع الحكم المباشر من موسكو. وجادلوا التأثير على مثل هذا الإجراء الذي سيتمثل في تهديد جميع البنى السياسيّة الموجودة في كاراباخ دون ضمان حقيقي للدفاع عن حقوق الإنسان الأساسية. ولدى عودته إلى موسكو أطلع ساخاروف ياكوفليف على رحلته، إلا أنه وجد أن "السلطات لم تكن مهتمة حقاً". (ساخاروف، ص91).

عملية الطوق

في ربيع عام 1991م، شنّ الأذاريون نوعاً جديداً من الهجوم على الأرمن القاطنين في منطقة ناغورنو كاراباخ المستقلة ذاتياً وفي مقاطعة شاهوميان إلى الشمال. ويدعى هذا الهجوم "عملية الطوق".

شاركت القوات العسكرية للفرقة 23 التابعة للجيش السوفييتي الرابع المتمركز في أذربيجان مع قوات وزارة الداخلية الأذربيجانية (OMON) للقيام بأعمال تهجير منظمة للأرمن. وقد بدأت "عملية الطوق" في أواخر نيسان عام 1991م في قريتي كيداشين وماردوناشين وسوف تبقى هذه الأسماء حيّة في ذاكرة الأرمن بالإضافة إلى باكو وسومغاييت للوحشية والمعاناة التي تعرض لها شعبهم. وكانت هذه العمليات التي تمّت ضد القرويين متميزة لوحشيتها. وتم تكرار الأسلوب الذي كان قد نفذ في كيداشين وماردوناشين وفي قرى أخرى في مقاطعة شاهوميان وفي أماكن أخرى من ناغورنو كاراباخ.

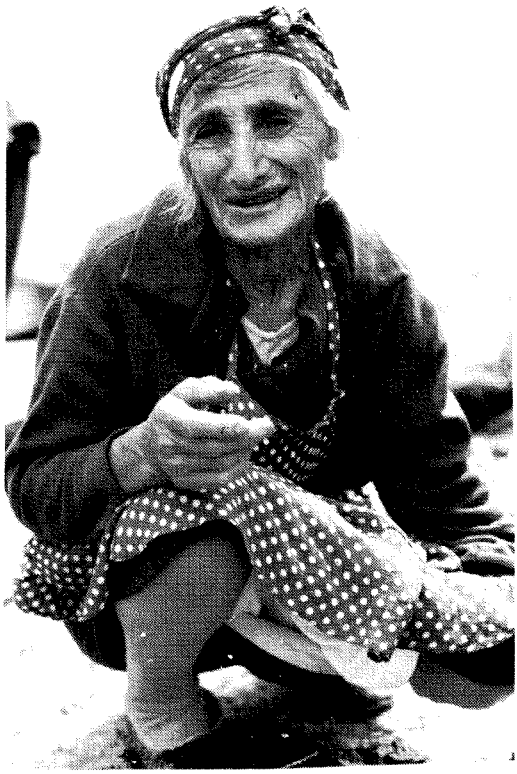

امراة أرمنية من شمال كاراباخ بعد التجائها إلى أرمينيا

كانت العملية تبدأ بالتهجير على يد قوات الجيش السوفييتي الرابع الذي يحاصر القرى بالدبابات وحاملات الجنود المدرعة، وكانت الطائرات المروحية تحلق على ارتفاع منخفض. وما إن تحاصر القوات السوفييتية القرية، تتحرك قوات القبعات السوداء وتدخل إلى القرية وتبدأ بإزعاج القرويين. فيعتقلون الرجال والنساء والأطفال بذريعة من مثل تدقيق "الجوازات". كما ارتكبت أعمال وحشية عديدة: فقد هوجم الرجال وقتلوا، واغتصبت النساء وأسيئت معاملة الأطفال. واختطف المدنيون كرهائن. وكان المواطنون الأذاريون من القرى المجاورة يأتون بشاحناتهم الصغيرة وسياراتهم ويسلبون ويسرقون كل شيء من الأدوات المنزلية وحتى الماشية. ثم يتم إخراج الأرمن من أرضهم

ويرغمون على العيش في مناطق أخرى كنازحين في ناغورنو كاراباخ أو في أرمينيا.

مؤتمر ساخاروف التذكاري

أدّت عمليات التهجير الناجمة عن عملية الطوق إلى مشاركة المجتمع الدولي بشكل مباشر للمرة الأولى في أزمة ناغورنو كاراباخ، إذ توافقت مآسي كيداشين وماردوناشين مع المؤتمر التذكاري الدولي الأول لأندريه ساخاروف الذي عقد في موسكو. وكان الدكتور زوري بالايان أحد المشاركين في مجموعة الخبراء الذين كانوا يناقشون "حقوق الإنسان والظلم على نطاق واسع"، الذي كان الممثل المنتخب لناغورنو كاراباخ في مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي. وكان روايته عن التهجير مقنعة جداً بحيث أن المؤتمر اقتنع بخطورة انتهاك حقوق الإنسان التي حدثت. لذلك أُتخذ قرار بوجوب إرسال وفد دولي مستقل من قبل المجلس إلى المنطقة لتقصي المسألة.

تألف الوفد من 15 عضواً من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والنرويج وانكلترا وروسيا. ويجب التأكيد على أن الأعضاء جميعهم باشروا التحقيق بدون مفاهيم مسبقة أو تحيز. وبقدر ما كانت التقارير عن النشاطات اللاحقة تعكس تعاطفاً مع الأرمن، فهذا لم يستبعد التعاطف مع ضحايا الصراع الأذاريين. وبالفعل، فقد كان بعض أعضاء الوفد يعملون في منظمات كانت ترسل المعونة إلى اللاجئين الأذاريين من الحرب في ناغورنو كاراباخ. وعلى خطا أندريه ساخاروف، كان معظم الأعضاء ملتزمين بمبدئه كي "يكونوا إلى جانب الضحية". وكانت تجربتنا نحن الذين قمنا بزيارة ناغورنو كاراباخ بأن أرمن كاراباخ كانوا الضحايا الرئيسين في هذا الوضع المأساوي.

وافق الأعضاء بالإجماع على النتائج التي توصلوا إليها والتي نشرت في بيان مشترك. ونورد فيما يلي مقتطفات منه:

"عضوية الوفد: أنطون أندرسن ـ النرويج، روبرت ارسنولت ـ الولايات المتحدة الأمريكية، البارونة كارولين كوكس ـ انكلترا (رئيسة الوفد)، كارولين كروفت ـ الولايات المتحدة، فيليبس غاير ـ الولايات المتحدة، الكسندر غولدين ـ الاتحاد السوفييتي، سكوت هورتون ـ الولايات المتحدة، ميكو كاتوكو ـ اليابان، دايفيد ليوبولد ـ الولايات المتحدة، الدكتور جون ماركس ـ انكلترا،

شين إتشي ماساغاكي ـ اليابان، ويليام ميللر ـ الولايات المتحدة، يوري سامودوروف ـ الاتحاد السوفييتي، (المدير التنفيذي للجنة التنظيمية للمؤتمر التذكاري الدولي الأول لأندريه ساخاروف) ألكسيج سيميونوف ـ الولايات المتحدة، البروفسور ريتشارد ويلسون ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

النتائج والتوصيات

استناداً إلى المقابلات والملاحظات المأخوذة من 16 موقعاً مختلفاً في أرمينيا وأذربيجان (نظراً للوضع المعقد ارتأينا سماع وجهات نظر كل من الأرمن والأذاريين) والمقابلات التي أجريناها في يريفان مع مرضى المشافي، وأقارب السجناء، والمسؤولين الحكوميين، نعتقد أنه حدثت انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان وللقانون السوفييتي والدولي ولا زالت تحدث. وتشمل هواجسنا:

1 ـ القتل : مثال روايات شهود عيان عن رجل أطلقت عليه النار في حنجرته 30 مرة أمام زوجته الحامل التي كانت تحاول الدفاع عنه بالضرب. وأطلقت النار على قس يجادل الجنود الذين أدانوه بنشاطات عسكرية. كما قدمت لنا روايات عن أعمال قتل كثيرة في عدة قرى.

2 ـ الضرب والتعذيب والهجوم الجسدي: مثال: أطلقت النار على مسن مشلول طريح الفراش في الساقين أمام زوجته العجوز (التي قابلناها) والتي أرغمت على تركه. وأمثلة عديدة من الاغتصاب والضرب. وفي وجود الجنود السوفييت، أرغمت امرأة مسنة ضعيفة (قابلناها أيضاً) بقوة السلاح على الوقوف في برميل وضُربت على رأسها وطلب منها ذكر "أفراد العصابات" وهُددت بقطع رأسها. وبتر الجنود آذان الفتيات والشابات وهم يقتلعون أقراطهن.

3 ـ التهجير بالقوة : أرغم مئات القرويين بقوة السلاح على ترك ممتلكاتهم وتوقيع رسائل بموافقتهم "الطوعية" على الرحيل وقد رُحِّلت قرية بكاملها ليلاً وغادر الناس الحدود في منتصف الليل تحت الأمطار المنهمرة بدون ممتلكات. وما يقلقنا هو حدوث أعمال تهجير أخرى بالقوة. كما نحثّ على عدم حدوثها وأن لا تتكرر الفظائع التي حدثت.

4 ـ الاختطاف والسجن : ثمة أمثلة عديدة، منها اختطاف طبيبين أرسلا لتقديم عناية طبية، وسجنا وكانا يضربان يومياً (ويتوفر دليل بالصور عن سوء المعاملة).

5 ـ تدمير البيوت والنهب وسرقة المواشي: استخدمت نيران الدبابات والقذائف والطائرات المروحية لتدمير البيوت، واستخدم الكاز لحرق الممتلكات وأحرق رجل يبلغ من العمر 80 عاماً في بيته. وصودرت المواشي والسيارات وممتلكات أخرى أو أخذت بمبالغ زهيدة جداً (مثال 3 روبل مقابل سيارة).

6 ـ تدمير الكنائس والمدارس والمباني العامة.

7 ـ القتل والخطف وروايات عن سجن ضباط ينفذون القانون: خلق ذلك حالة من الخوف. قابلنا أقرباء كثير من رجال المليشيا والمدنيين الذين اختطفوا. ونحن قلقون بشأن حزنهم ونحثّ على بذل جهد فوري لإطلاق سراح المحجوزين أو لضمان محاكمتهم حسب الإجراءات القانونية العادلة. وقد أثير هذا الموضوع مع المارشال د. يازوف هذا الصباح الذي قال إنه سيبحث في الأمر.

في زيارة إلى أذربيجان عبر الحدود من القرية الأرمنية الشمالية فوسكابار، عبر الحدود ستة من أعضاء الوفد للقاء الأذاريين هناك ولسماع رواياتهم. ولم يسر قروي واحد على هذا الطريق منذ شهر، وحاول الأرمن أن يثنونا عن ذلك بسبب خطورته. وتحادثنا مع قرويين على كلا الجانبين الذين كانوا أصدقاء منذ سنين. وقال المايجور في الجانب الأذاري إنه حدثت مآسٍ عائلية كثيرة، إلا أن ذلك ليس حجة للانتقام. وكان الجميع سعداء لأننا بذلنا جهداً لفهمهم.

إسهام إضافي للمؤتمر الصحفي

تؤكد التقارير التي تؤيدها المصادر الرسمية بأن ر. ماميدوف، نائب الوزير الأول للشؤون الداخلية في أذربيجان، رئيس الممثلين التنفيذيين لمجلس الناحية، ورؤساء النواحي للميليشيا والمخابرات السوفييتية (KGB) وعدداً من المسؤولين المحليين كانوا موجودين (عند أعمال التهجير)، وقاموا بتوجيهها. ولم يعر أحد اهتماماً لمطالب السكان بالحماية العسكرية. وبشكل خاص أجاب الكولونيل زوكوف من القيادة العسكرية السوفييتية في ناغورنو كاراباخ بأنه لا يستطيع عمل شيء. وقبل العملية وأثناءها أرغمت قوات القبعات السوداء القاطنين على توقيع بالرحيل "الطوعي"، وغالباً ما كان يتم ذلك تحت التعذيب والضرب والتهديد بالقتل. وتدل الإثباتات على أن كثيراً منهم قد أرغموا على المغادرة بدون توقيع أي شيء. وطُلب من الذين وقّعوا

توجيه تصريحاتهم إلى السيد بوليانيشكو، السكرتير الثاني للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أذربيجان.

النتائج

قامت القوات الداخلية التابعة لوزارة الداخلية السوفييتية بالتنسيق مع قوات القبعات السوداء الأذربيجانية بتهجير قوى كاملة بالقوة، وكانت غالباً تمارس العنف مع المدنيين منهم النساء والأطفال والمسنين. ووجدت انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان المكفولة دولياً، وانتهاكاً واضحاً للاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية واتفاقات دولية أخرى التي تعتبر الاتحاد السوفييتي طرفاً موقعاً عليها. ووجدنا إثباتاً دامغاً بأنه يتم التخطيط لعمليات تهجير أخرى والإساءات المتصلة بها من قبل السلطات الأذربيجانية والسوفييتية وهي وشيكة ما لم تتخذ إجراءات فورية للحيلولة دون وقوعها.

زيارة أخرى قامت بها مجموعة الخبراء من الوفد الدولي إلى باكو في 30 أيار - 1 حزيران عام 1991.

"في 30 أيار عام 1991م، سافر خمسة أشخاص (موظفان ومشاركان أجنبيان وصحفي أجنبي) إلى أذربيجان برعاية المؤتمر التذكاري الأول لأندريه ساخاروف. وفي رسالة سلّمت إلى القادة الأذربيجانيين، طلبنا عقد اجتماعات مع قادة أذربيجان منهم الرئيس الأذربيجاني. وطلبنا القيام بزيارات إلى المناطق التالية: قرى شوشي وهادروت من ناغورنو كاراباخ التي هربت منها أعداد كبيرة من الأرمن، وقرى مقاطعة شاهوميان وإلى مدن ستيباناكيرت وخوجالو. ونظراً لأن طلباتنا قدمت بشكل متكرر خلال زيارتنا، منها الزيارة إلى الرئيس الأذربيجاني آ. مطاليبوف والدكتور آ. داشداميروف، رئيس اللجنة الدائمة لسيادة الدولة لمجلس السوفييت الأعلى في جمهورية أذربيجان. والطلب الوحيد الذي تم تلبيته هو عقد سلسلة من الاجتماعات مع قادة ومسؤولي أذربيجان. ولم تتم الموافقة على زيارة بعض الأماكن المحددة.

النتائج

في اجتماع مع الرئيس مطاليبوف والدكتور داشداميروف، وجدنا أن هذين المسؤولين يسوغان أعمال التهجير الجارية ولا يرغبان في وقف تهجير الأرمن

من ناغورنو كاراباخ. ويتمثل هدف سياسة التهجير هذه في جعل السلطات الأرمنية تلغي مرسوماً اتخذه مجلس السوفييت الأعلى الأرمني الذي يقضي بأن "أرمينيا توافق على ضم منطقة ناغورنو كاراباخ المستقلة ذاتياً بناء على طلب هذه الأخيرة". إن هدف سياسة التهجير بالقوة يكمن في "تطهير منطقة القواعد التي تستخدمها القوات العسكرية الأرمنية".

كما عقدنا اجتماعات مع ممثلين عن رجال الفكر الأذربيجانيين الذين عبّروا بالإجماع عن القلق بأن الرأي العام في الاتحاد السوفييتي وفي الخارج، الذي أدان بشدّة عمليات تهجير الأرمن لم يكن قوياً بشكل كاف في إدانة عمليات تهجير الأذربيجانيين التي حدثت في عام 1988م. إن رئيس أذربيجان والمفكرين الأذربيجانيين ينتابهم القلق من أن الرأي العام قد تأثر "باللوبي الأرمني" بشكل غير مناسب.

لم ينكر أي مسؤول قابلناه احتمالية اشتراك قوات القبعات السوداء الأذربيجانية في أعمال العنف التي شملت القتل والنهب واللصوصية والعنف الموجهة ضد النساء والأطفال والمسنين.

التوقيع: دافيد ب. ليوبولد، روبرت ل. ارسنولد، يوري سامودورف، ألكسندر غولدين.

زيارة متابعة إلى أذربيجان وأرمينيا وناغورنو كاراباخ، تموز 1991

بالاستناد إلى القلق الذي عبّر عنه وفد مؤتمر أندريه ساخاروف عقب الزيارة في أيار 1991، قامت بعثة متابعة في تموز وللحفاظ على حيادية التزام اللجنة تم الاتفاق على أن تبدأ هذه الزيارة في أذربيجان لسماع رواية الأحداث من الأذاريين قبل التحدث إلى الأرمن.

فيما يلي نورد مقتطفات من تقرير هذه الزيارة:

"للمرة الأولى يتم قبول دخول وفد دولي إلى ناغورنو كاراباخ، وأجرى الوفد مقابلات مع المحتجزين الأرمن في السجون الأذربيجانية، وقام أفراده بزيارة القرى التي جرت فيها عمليات التهجير، وقابلوا السكان المحليين، والمسؤولين الجمهوريين والمحليين، والمسؤولين العسكريين، والمهجّرين واللاجئين. وسافر الوفد بالطائرة من باكو إلى يريفان على طائرة أرمنية. ولم تكن قد طارت على هذا الخط منذ ثلاث سنوات.

منذ زيارتنا الأولى، تفاقم التوتر في المنطقة مع تهجير الأرمن الجماعي

الجاري ولا سيما من مقاطعة شاهوميان. وتم تهجير سكان ثلاث قرى أرمنية من مقاطعة شاهوميان (اركتش، بوزلوخ، موناتشوك) خلال إقامتنا في المنطقة.

نخلص إلى أن انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان لا تزال تجري. وقد حددنا أربع نقاط رئيسة لأسباب التوتر هي: التهجير بالقوة، الاعتقال، ازعاج المدنيين، والقوات الأذربيجانية الخاصة ذات القبعات السوداء.

1 ـ التهجير بالقوة

تتواصل أعمال التهجير بالقوة في القرى الأرمنية في ناغورنو كاراباخ وحولها. ويحاصر الجنود والقوات الأذربيجانية الخاصة القرى الموجودة في منطقة شاهوميان هذا الأسبوع ويتم تهجير السكان بالقوة.

يستمر المسؤولون الأذاريون ومنهم الرئيس مطاليبوف والسكرتير الثاني للحزب الشيوعي الأذربيجاني بوليانيشكو في تبرير أعمال التهجير هذه كترحيل طوعي. وتبين الدلائل على أنه نفذت عمليات التهجير بوحشية. وشملت فقدان الحياة والأملاك والأضرار الجسدية.

المهجّرون الأرمن من أذربيجان عام 1989

في رحلاتنا إلى القرى الأرمنية السابقة من كيروف (مقاطعة بيرتاتسور) ودولانلار (مقاطعة هادورت) التقينا بمقيمين جدد وأكدوا على أن القرى أصبحت آهلة الآن بالأذاريين. وكان جميع الذين التقينا بهم لاجئين من أرمينيا.

2 ـ الاعتقالات

تلقينا تقارير عن اعتقالات جرت مؤخراً لأرمن في ناغورنو كاراباخ. يسرنا أن نلاحظ أنه تم إطلاق بعض الأذربيجانيين والأرمن. وتلقينا شهادات مباشرة من معتقلين أطلق سراحهم مؤخراً وأشخاص رهن الاعتقال في ناغورنو كاراباخ. وفي كيروفاكان بأرمينيا قابلنا أحد عشر رجلاً من المليشيا الأرمنية أطلق سراحهم مؤخراً ووصفوا لنا احتجازهم من قبل القوات الداخلية السوفييتية، وحبسهم في سجن كانجا (مقاطعة كيروفاباد) في أذربيجان. وتعرّضوا للضرب اليومي وأظهروا الكدمات وآثار ذلك. ووصفوا ظروف السجن الوحشية كالحرمان من الماء وتقديم طعام شديد الملوحة لزيادة حدة العطش.

وفي سجن شوشي في ناغورنو كاراباخ، التقينا ثمانية عشر سجيناً أرمنياً دون اختيار منا. ولم يتمكن أي من المعتقلين من الاتصال بقريبه منذ اعتقالهم أو الحصول على المشورة القانونية. ولم يكن بعض السجناء يعرفون سبب اعتقالهم. وكان لدى واحد على الأقل كدمات وآثار تعذيب على ظهره، التي أبدت احتمال ضرب حدث مؤخراً.

وفي باكو قمنا بزيارة سجن بيلوفسكي حيث تحدثنا مع أربعة أرمن من ناغورنو كاراباخ. ويبدو أن الاعتقال بعيداً عن البلد يحد من الوصول إلى المشورة القانونية وقدرة الأقرباء والأصدقاء على حضور المحاكمات.

وأخيراً، تلقينا دليلاً في ستيباناكيرت عن احتجاز الأرمن الذين لا تعرف الأماكن التي هم فيها.

3 ـ **الإساءة وإزعاج المدنيين** (السطور التالية ملخص للنص الأصلي وليست هي النص بحرفيته).

سمع أعضاء الوفد دليلاً على سوء معاملة المدنيين في القرى الأذارية والأرمنية على حد سواء. كما قاموا بزيارة القرى التي أرغم فيها الأرمن على الرحيل والتي أعيد تأهيلها بالمدنيين الأذاريين. وعبّر بعضهم عن أسفه بأنهم

كانوا يقطنون بيوتاً كان يقطنها الأرمن منذ ستة أسابيع فقط. وعبّر آخرون عن كراهيتهم للأرمن وزعموا أن ذلك كان انتقاماً لمعاملة الأرمن خلال الأعمال الانتقامية في يريفان عقب مجازر باكو وسومغاييت.

أمثلة عن أدلة أخذت من مهجّرين أرمن في ستيباناكيرت: "سيدة عجوز قدمت نفسها باسم أكوبيون يفكاكيا: في 15 أيار عام 1991م، جاءت المروحيات إلى قريتها. ولم يكن يوجد فيها سوى 11 قروياً، وألقى الجنود القبض عليهم وطلب منهم إظهار الأسلحة التي يخبؤونها. وأجابوا بأنه لا توجد لديهم أسلحة. ثم وصل بعض القرويين الأذربيجانيين المحليين وأرغموا الأحد عشر أرمنياً على الخروج من القرية. وأرغموا الأرمن على الوقوف زوجاً زوجاً ثم غيّروا الأزواج بحيث لم يعد يقف الزوج والزوجة والأم وابنها سوية. ثم أطلقوا النار وقتلوا امرأتين ورجلين من بينهما زوج أكوبيون. وعندما توجهت هي وبقية الناجين لحمل الجثث، قُتل قرويان آخران. انهارت السيدة أكوبيون وقالت إنها لم يعد لديها زوج ولا أملاك. وكان كل ما تملكه في هذا العالم وثيقة، أعطتنا إياها، تسجل الأملاك التي فقدتها. ولم يعد بوسعها العودة إلى قريتها.

امرأة شابة تبلغ من العمر 20 عاماً تدعى السيدة بارسيخيان من منطقة بيرتاتسور: قالت السيدة بارسيخيان إنه في يوم 13 أيار عام 1991م عند الساعة السادسة مساء، حاصرت قوات وزارة الداخلية السوفييتية وقوات القبعات السوداء الأذربيجانية ودخلت القرية لتدقيق جوازات السفر. وقيدوا زوجها وأخي زوجها وألقوهما في باص. وأعطوها وثيقة أصرّوا على توقيعها تقول فيها إنها مستعدة لمغادرة القرية طوعياً. ووقّعت لأنها كانت مذعورة. فقد كان لديها طفل عمره 14 شهراً. واقترب جندي منها وأمسك رأس طفلها وقال: "أنت أرمني ولذلك يجب أن أقطع لسانك". فهاجمت الجندي ودفعته بعيداً. وسألها المترجم فيما إذا اغتصبت فلاذت بالصمت. وثارت عدة أصوات في القاعة تطالبها بالقول إنها اغتُصبت لأننا كنا بحاجة لأن نعرف. ثم اعترفت بأن الجندي اغتصبها إلا أنهم تركوا الطفل وشأنه. ولا زال زوجها وأخوه رهن الاعتقال.

رجل مقعد من ميتشين: في 14 أيار عام 1991م، جاءت الطائرات المروحية وقوات القبعات السوداء الأذربيجانية إلى قريته وضربوه. فسأل لماذا بأجابوه: "سوف تصبح قريباً اسوأ". وقيّدت أيدي الرجال وألقي بهم في عربة وانطلقت. وكان له صديق في الغرفة، كان مسناً أيضاً ومقعداً هو الآخر ضرب

كذلك. وكان ثمة 20 رجلاً في الباص. وضربوا الشباب لكي لا ينجبوا أطفالاً. ثم جاء الرجال الآخرون وأكّدوا القصة".

4 ـ قوات القبعات السوداء الخاصة

"وجدنا دليلاً على إساءات شديدة قامت بها قوات القبعات السوداء الخاصة خلال عمليات التهجير. وقد تعرضنا نحن (أعضاء الوفد) لإزعاجات على يد هذه القوات في مطار ستيباناكيرت. وقد اعتقل خمسة مواطنين من ستيباناكيرت كانوا على طائرتنا من يريفان لدى وصولهم في 16 تموز. وعندما اعترضنا هددتنا القوات".

موضوع آخر أثير في الزيارتين كان حول إغلاق الكنائس وتدميرها. "فقد تحدث عن ذلك أعضاء الوفد في يريفان في 6 تموز إلى المطران باركيف ماردیروسيان مطران كاراباخ (ارتساخ) للكنيسة الرسولية الأرمنية. في عام 1805م، عندما كانت كاراباخ جزءاً من الامبراطورية الروسية، كان يوجد فيها 1311 كنيسة ودير. وفي عام 1923م، سلمت ناغورنو كاراباخ إلى أذربيجان. وبدأت الكنائس تغلق على الفور. ولديه آخر رسالة من مطران

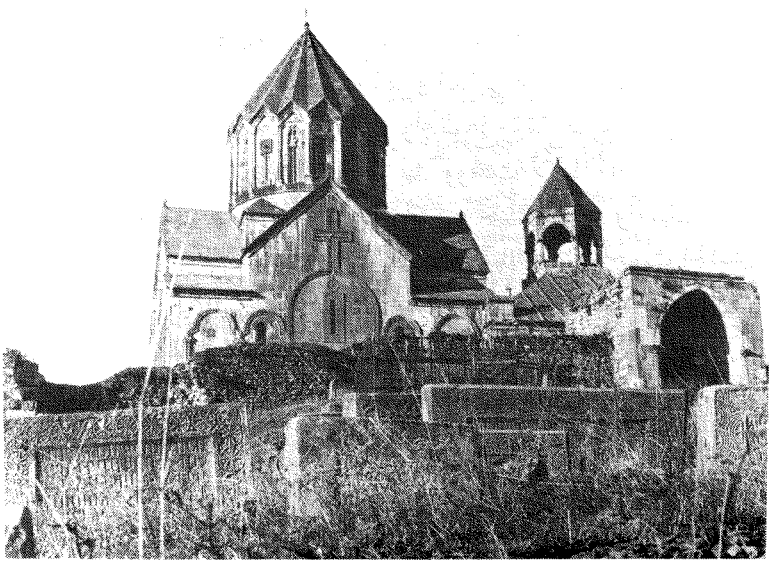

دير وكنيسة كانتسار ـ القرن الثالث عشر

كاراباخ في عام 1931م إلى مقر الكنيسة في ايتمشيادزين مؤكدة وجود 112 كنيسة و18 ديراً في ذلك الحين. وأغلقت جميعها بعد ستة أشهر. وفي عام 1989م، سمحت موسكو بفتح بضع كنائس وأديرة (قالت باكو "لا"). وفي 21 تشرين الثاني، اتخذت باكو قراراً بإغلاق جميع كنائس كاراباخ. ونشر القرار في الصحافة الأذربيجانية. وادعوا أنه لا يحق لموسكو التفويض بفتح الكنائس. وكتب كاثوليكوس (رئيس) الكنيسة الأرمنية إلى هيئات عديدة منذ أكثر من 20 سنة للموافقة على فتح الكنائس في كاراباخ عندما لم تكن توجد أي منها.

وفي أواخر أيلول جاء الهجوم على كنيسة أماراس، بعد يومين من افتتاحها رسمياً. ويعود دير القديس غريغوريوس المنوِّر إلى القرن الرابع. حتى قبل ذلك هوجمت الكنيسة واعتبرت غير قابلة للاستخدام وأغلقت نهائياً في 15 أيار عام 1991م. ويعتبر دير كانتسار (القرن الثالث عشر) المركز الديني الرئيس في كاراباخ ومقر المطران. وفي 6 تموز أغار عليه الجنود السوفييت وقوات القبعات السوداء وزعموا أنهم يبحثون عن الأسلحة. وأجري بحث دقيق عنها ودقّقوا في أوراق جميع السكان، وأغارو على المقابر لتفتيشها.

انتهاء عملية الطوق

انتهت حقبة أعمال الترحيل الوحشية عندما تغيرت القيادة السوفييتية في آب عام 1991م. وطُلب من القوات السوفييتية في ظل الرئيس يلتسين أن تلعب دوراً أكبر في حفظ السلام وتوقفت عملياتها المشتركة مع قوات القبعات السوداء الأذربيجانية. وهذا يدعم الرأي الذي كان يقدم غالباً إلى الوفود الدولية لتحقيق هدفين: الأول كان بمثابة عقاب فرضه الرئيس غورباتشوف و"مركز" الاتحاد السوفييتي لرغبة أرمينيا في الانفصال عن الاتحاد. وثانياً، خدمت هدف أذربيجان بالبدء بتطهير ناغورنو كاراباخ من سكانها الأرمن، تمهيداً لإعادة إسكان الأرض بالأذاريين. وقد نظر الأرمن إلى هذه السياسة بفزع شديد، ورأوا فيها بداية عملية من قبيل تلك التي حدثت في ناخيتشيفان، التي أرغم سكانها الأرمن على الهجرة، وإبقاؤها منطقة أذرية بالكامل تقريباً.

لم تنته آثار عمليات الترحيل عندما توقفت العملية. فلا يزال كثير من الهجَّرين بدون مأوى، ويعيشون في ظروف من الفاقة سواء في ناغورنو

كاراباخ، التي لا تزال تحت الحصار، أو في أرمينيا. وأصبحت الظروف في أرمينيا يائسة منذ ذلك الحين، وقد أحدث فيها الحصار المفروض من قبل أذربيجان وتركيا ضرراً اقتصادياً كبيراً. كما لا تزال توجد مئات الألوف من الناس بدون مأوى نتيجة الهزة الأرضية في كانون الأول عام 1988م. لذا، فإن محنة النازحين نتيجة عمليات الترحيل عام 1991م خطيرة جداً والانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان المفروضة عليهم لا تزال تسبب آلاماً شديدة. وهذا عامل في المعادلة السياسيّة المعاصرة التي لا يمكن تجاهلها.

الصراع بعد المرحلة السوفييتية

في محاولة للمصالحة أشار أرمن ناغورنو كاراباخ خلال صيف عام 1991م إلى رغبتهم في إلغاء مطالبتهم بإعادة الوحدة مع أرمينيا والموافقة على العيش ضمن حدود أراضي أذربيجان. وفي عام 1991م، بدأ الموقف مؤقتاً ومشوباً بمزيد من الأمل مع تدخل المجتمع الدولي في المبادرة البناءة التي توجتها اتفاقية تشيليزنوفودسك في 23 أيلول عام 1991م، وكان الموقعون رؤوساء كل من روسيا وكازاخستان وأرمينيا وأذربيجان. وكان من بين الاتفاقيات التي تم التوصل إليها إنهاء الحصار من قبل أذربيجان، ووقف لإطلاق النار، وتبادل الرهائن وفتح قنوات طبيعية للاتصال والنقل. ولسوء الحظ لم تنفذ اقتراحات تشجيع السلام: واستمر الحصار بدون هوادة وبقيت ناغورنو كاراباخ المنطقة الداخلية المحاصرة المقصوفة. وفي الخريف، تدهور الوضع السياسي عندما أعلنت أذربيجان، التي بدا أنها ترى المصالحة كدلالة على ضعف أرمينيا، أنها ستلغي رسمياً وضع ناغورنو كاراباخ المستقلة ذاتياً الذي منح لها عندما وضعت كمنطقة ضمن أذربيجان في العشرينات. كما أعلنت أذربيجان عن نيتها في إعادة تسمية عاصمة ناغورنو كاراباخ ستيباناكيرت، باسم تركي.

أصاب أرمن ناغورنو كاراباخ الذعر من هذه الإعلانات والنوايا التي تكمن وراءها. وخيم شبح المجزرة الكبيرة التي حدثت في تركيا، والمجازر في ما وراء القوقاز و "التطهير العرقي" في ناخيتشفيان، مع الخوف من فقدان وطنهم القديم. وبعد أن أدركوا الموت الوشيك لأي إجراء من الحكم الذاتي والتهديد بوجودهم، وشعروا بأنهم مرغمون على اللجوء إلى إجراءات للدفاع عن النفس من أجل البناء والبقاء.

الاستفتاء والانتخابات في ناغورنو كاراباخ

كان عدد سكان ناغورنو كاراباخ في خريف عام 1991م زهاء 180000 نسمة منهم 75٪ من الأرمن و25٪ من الأذاريين الأتراك. وعندما أدرك زعماء ناغورنو كاراباخ أن مستقبلهم كمنطقة مستقلة ذاتياً في خطر، كان الحل الديمقراطي الوحيد الذي ارتأوه يتمثل في إجراء استفتاء بغرض إمكانية إعلان الاستقلال عن أذربيجان. وأعطت التدابير كل مواطن فرصة التصويت. وقاطع الأذاريون التصويت، إلا أن الأغلبية الساحقة للأرمن (أكثر من 90٪) أدلت بأصواتها، وصوّت أكثر من 90٪ من هؤلاء لصالح الاستقلال. وضمن هذا السياق، استمر القادة وأجروا انتخابات عامة للبرلمان شملت تمثيلياً نسبياً للمقاعد للسكان الأذاريين. ومرة أخرى قاطع الأذاريون إلا أن باقي المقاعد ملئت وافتتح البرلمان في كانون الثاني عام 1992م.

قابل حكام أذربيجان هذه التطورات بالغضب. واستمروا في تصعيد الهجمات العسكرية في محاولة للقضاء على إعلان الاستقلال الوحيد الجانب. وقد أصبحت مهمتهم أكثر سهولة عندما انسحبت قوات الجيش السوفييتي من قبل الرئيس يلتسين. وعندما انسحبت القوات، تحركت القوات الأذربيجانية المسلحة وقوات القبعات السوداء للحلول مكانها. وأصبحت كاراباخ ساحة معارك مفتوحة، وحوصر المدنيون في الداخل.

تصعيد الهجوم العسكري

الإفادة التالية تستند على دليل مباشر تم الحصول عليه خلال المهمات الإنسانية العشر إلى ناغورنو كاراباخ في عام 1992 - 1993م.

فقد كان عام 1992م عاماً لم يكن له مثيل في الهجوم العسكري على السكان المدنيين. فقد أريقت دماء كثيرة في كلا الجانبين. أما بالنسبة لأرمن كاراباخ فقد تفاقمت محنتهم بإحكام الحصار، وقطعت كل الموارد تقريباً، ومن بينها الماء والكهرباء والوقود والغذاء والأدوية.

كانون الثاني عام 1992م : عندما عزمت مؤسسة أندريه ساخاروف بالاشتراك مع المؤسسة الدولية للتضامن المسيحي (CSI) للقيام بزيارتين إلى ناغورنو كاراباخ في كانون الثاني عام 1992م، أصيب أعضاء الوفد بالصدمة نتيجة تدهور الموقف. وكانت ستيباناكيرت تتعرض للقصف المستمر بالمدافع

وصواريخ ألازان من قبل الأذاريين المتمركزين في شوشي، تلك المدينة القابعة على قمة هضبة على بعد ثلاثة أميال فقط. وكان على الأرمن القاطنين ستيباناكيرت قضاء جل وقتهم في أقبية الملاجىء السيئة جداً. وتعين عليهم أن يقبعوا في الظلام بدون ضوء أو دفء أو كهرباء في درجات حرارة أقل من الصفر، وبدون مياه جارية أو ظروف صحية أو تهوية ملائمة. وعندما قطع الأذاريون الكهرباء، كانت المياه المتاحة الوحيدة لسكان ستيباناكيرت البالغ عددهم 82000 نسمة من ثمانية آبار ربيعية. وكان الأمر يستغرق خمس ساعات للذهاب والعودة من الآبار والانتظار مع المئات الآخرين في البرد

بناء في ستيباناكيرت بعد تدميرها بصواريخ غراد أذاري

القارس تحت القصف المستمر لملء دلوين من الماء فقط ولعل أسوأ الأمور التي تعرضوا لها كان نقص الإمدادات الطبية. فقد رأينا في المشفى المقصوف بالقنابل مرضى مصابين بجروح بالغة كالحروق الشديدة وبتر الأطراف والزجاج في العينين والرصاصات في العمود الفقري. ولم يكن لدى العاملون الطبيون أدوية مخدّرة أو مسكّنة للألم: وفي غالب الأحيان، كانت الفودكا الشيء الوحيد الذي كانوا يحاولون تخفيف الألم به. وفيما كان فريق CSI يجري محادثات مع كبار المسؤولين الحكوميين في ستيباناكيرت، استلمت رسالة من قائد الأذاريين المتمركزين في شوشي يعلن فيها أن قواته ستستخدم قريباً صواريخ غراد الراجمة ضد مدنيي ستيباناكيرت والقرى المحيطة. وقد بثت هذه الأخبار الذعر في نفوس الأرمن وذلك لأن راجمات غراد تطلق 40 صاروخاً قوياً بطلقة واحدة، ويمكن لكل قذيفة أن تدمر مبنى مؤلف من طوابق عديدة. وبذا سترتفع حصيلة القتلى ارتفاعاً كبيراً.

آذار عام 1992م : عندما أخذت الدفعة الثانية من المعونة المرسلة من CSI إلى كاراباخ في آذار، ازداد الوضع تدهوراً. وكان يجري تدمير ستيباناكيرت بشكل مضطرد. وأصبحت كثير من المباني خراباً. وأبنية أخرى لا تزال قائمة، وتبدو واجهاتها طبيعية، إلا أنها مدمرة من الداخل عندما كانت قذيفة غراد تخترق جداراً وتنفجر في الداخل، محدثة إصابات رهيبة في الغالب. ففي أحد الأيام من ذلك الشهر، أحصينا 400 قذيفة غراد منطلقة من شوشي على المدنيين في ستيباناكيرت، بين السابعة صباحاً والرابعة بعد الظهر. وفي كل يوم، كانت الأصابات تضم النساء والأطفال الذين كانوا يصابون بجراح نتيجة إصابتهم بالشظايا الحادة كالشفرة.

لم تكن ستيباناكيرت الوحيدة المستهدفة. ففي يوم واحد، كان من الواضح أن قرية قريبة تدعى شوش، كانت تتعرض لهجوم بقذائف غراد. وكان من مهمة CSI إظهار التضامن مع ضحايا الظلم، وزار عدد من أعضاء الوفد قرية شوش وشاهدوا بأنفسهم الدمار الذي أحدثه الهجوم بصواريخ غراد وكانت القرية تتعرض للنيران منذ الساعة السابعة صباحاً. وعندما اقتربنا، رأينا الحيوانات في ساحات المزرعة ملقاة على الأرض مقطعة الأشلاء نتيجة القذائف. وفي القرية، كان ثمة إصابات بشرية بين أنقاض البيوت التي هدمتها الإصابات المباشرة للقذائف (والسلاح يدعى غراد الذي يعني

بالروسية "الهيل").

نيسان عام 1992م : تعرض الأرمن إلى قصف متواصل لمدنهم وقراهم. إلا أنهم استولوا على كميات كافية من الأسلحة من القوات الأذارية السيئة التنظيم ليتمكنوا من مجابهة الهجوم وكانت قواتهم تنتشر على شريط ضيق ولم تتمكن من الدفاع عن ناغورنو كاراباخ بكاملها. وكانت الكثير من القرى معرضة للهجمات الأذارية وأعمالهم الوحشية.

الهجوم الأرمني المضاد

أيار عام 1992م: حقّقت قوات كاراباخ نجاحين عسكريين كانا ضروريين لبقاء شعبها. وكان النجاح الأول في الاستيلاء على الحصن الأذاري في شوشي: عملية عسكرية مهيبة ضد قلعة طبيعية قابعة على جبل وعر. وكانت هذه العملية ضرورية إذا تعين بقاء ستيباناكيرت على قيد الحياة وعدم إبادة سكانها. فمع القذائف المنطلقة من راجمات غراد على ستيباناكيرت أصبح مستوى القتلى والجرحى المدنيين غير محتمل، وأصبحت المدينة عبارة عن ركام. وكان أرمن كاراباخ يتهيبون من الخسارات التي سيتعرضون لها عند الهجوم على تلك البلدة الواقعة على قمة الهضبة، وتركوا ممراً مفتوحاً ليتمكن عبره الأذاريون من الهروب. واستناداً إلى الأرمن، فقد استخدم الأذاريون طريق الهروب بسرعة وأبدوا مقاومة ضعيفة.

وكانت المبادرة الثانية تتمثل في فتح ممر عبر أذربيجان، للربط بين كاراباخ وأرمينيا، وكانت هذه العملية ضرورية كذلك للبقاء، نظراً لأن خط الإمدادات الوحيد كان يتم بواسطة الطائرات الحوامة الصغيرة ذات سعة الطنين أو طائرات ياك 40- النفاثة الثنائية المحرك. وبما أن الأذاريين يملكون صواريخاً، فقد تمكنوا من إسقاط إحدى الطائرات النفاثة والعديد من الحوامات، فأصبح خط الحياة معرضاً لمزيد من الخطر. ونتيجة لذلك، فقد أصبح الحصار يسبب ضرراً أكبر وواجه سكان كاراباخ الموت بالاختناق البطيء للإمدادات الضرورية. ومن هنا برزت ضرورة فتح طريق بري عبر بلدة لاجين وإقامة ممر لنقل الغذاء والوقود والدواء وإخلاء المصابين.

واستمرت الحرب في ناغورنو كاراباخ في التفاقم مع مرور عام 1992م. وأطلق الأذاريون قوات جديدة قوية ضد السكان القلائل في ناغورنو كاراباخ

وقد غادر الآن السكان المدنيون الأذاريون البالغ عددهم 40000 نسمة وتركوا منازلهم في كاراباخ وظل الأرمن البالغ عددهم 140000 يقاتلون من أجل البقاء إزاء الأخطار المتزايدة.

حزيران عام 1992م : أجرت أذربيجان انتخابات عامة واستلمت السلطة حكومة جديدة تمثل الجبهة الشعبية الأذربيجانية المتطرفة. وكان من السمات البارزة للبيان "تسوية لمشكلة" كاراباخ. لذلك لم يكن مستغرباً عندما شنت الحكومة الجديدة بعد الانتخابات بفترة قصيرة هجوماً عسكرياً رئيساً على ناغورنو كاراباخ. وكان يساعده ما لا يقل عن 40 ضابطاً كبيراً في الجيش التركي الذين أحيلوا على التقاعد بشكل مبكر لكي يتمكنوا من المجيء لدعم اخوانهم الأذاريين.

كان الزحف العسكري شنيعاً. فقد وصف القرويون من مقاطعتي شاهوميان وماردا كيرت، اللتين اكتسحتا في الهجوم، فقد أرغمهم هجوم مباغت بالطائرات والدبابات والقصف بقذائف غراد على الهروب من بيوتهم وقراهم، ولم يسنح لهم الوقت لجمع حاجياتهم أو مواشيهم. وغادر كثير منهم بثيابهم التي كانوا يرتدونها، وكان بعضهم لا يزال في الحذاء المنزلي. وعندما هربوا إلى الملجأ النسبي في الجبال والغابات، كانوا لا يزالون يتعرضون للقصف بقذائف غراد ونيران الدبابات. وقُتل عديد منهم وهم يحاولون الهرب وانقسمت العائلات، ولقي المسنون حتفهم وهم يحاولون السير إلى ستيبانا كيرت لمسافة 50 ميلاً.

أم شابة أرمنية من شمالي ناغورنو كاراباخ، السيدة شوشانيك روت لوفد CSI تجربتها خلال الهجوم الأذاري: "هاجموا القرية وبدؤوا يقطعون القرويين إرباً إرباً. وسمعت بنفسي أصوات صرخات رجل كانوا يقطعون رأسه بالمنشار. ثم أخذنا أطفالنا ولذنا بالفرار. وعدنا في اليوم التالي إلى القرية. وكان المشهد فظيعاً! فقد قطعت أوصال الناس، وفقئت عيونهم وقطعت آذانهم. ثم رأيت الشخص الذي رأيته سابقاً يقطع رأسه بالمنشار. وكان المنشار ملقى بجانبه وتدفق الدم كله من جسمه. وثمة رجل آخر - عمي - كان قد رُبط إلى دبابة وسحب مسافة 500 متر. بعدها هربنا إلى شاهوميان. وبعد عشرة أيام فعل الأذاريون الشيء نفسه. بعد ذلك أخذت الأطفال وهربت. ومشينا مسافة 40 ميلاً. ووصلنا عطاشاً أكثر وجائعين

وكانت ثيابنا قد أصبحت رثة. ولم نتمكن من أخذ شيء معنا. لقد رأيت كل ذلك بأم عيني".

في ذلك الهجوم طُرد جميع الأرمن من شاهوميان وماردا كيرت، وفقد أرمن ناغورنو كاراباخ 40٪ من منطقتهم الصغيرة. وجاءت القوات الأذارية على مسافة 10 أميال تقريباً من ستيباناكيرت، قرب بلدة أسكيران. ولو كانت الدبابات قد تمكنت من اختراق ستيباناكيرت، لكانت نهاية حياة أرمن ناغورنو كاراباخ. وقد قاومت القوة الصغيرة نسبياً والمنظمة جيداً والتي تمثل الـ140000 أرمني في ناغورنو كاراباخ القوة الأذربيجانية المؤلفة من 7 ملايين والتي تؤازرها تركيا.

آب عام 1992م : في زيارة أخرى لنقل المعونة الإنسانية إلى ناغورنو كاراباخ، شاهد وفد من CSI بعداً جديداً من الهجوم ضد سكان ناغورنو كاراباخ: فقد كان الأذاريون يستخدمون القصف الجوي بقاذفات سوخوي 25 وأسقطوا قنابل زنة 500 كغ على المدنيين في ستيباناكيرت والقرى المحيطة.

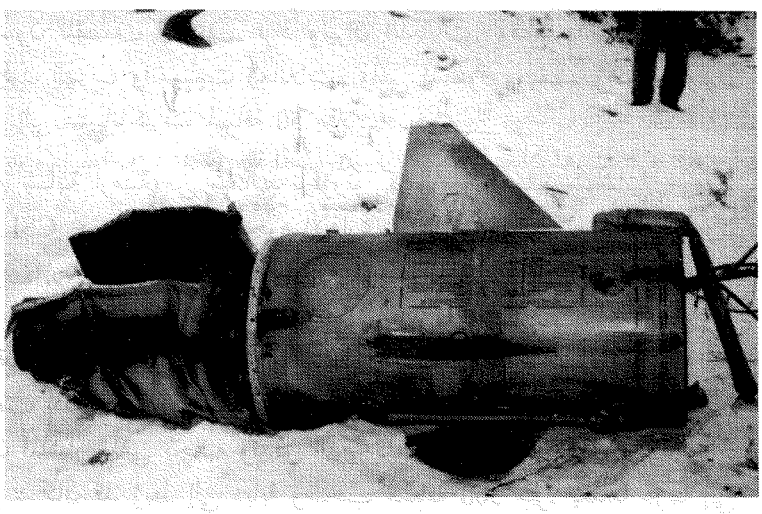

بقايا صاروخ أذاري ألقي على مدينة ستيباناكيرت في 8 كانون الثاني عام 1993

تشرين الأول عام 1992 م: لجأ الأذاريون إلى ممارسة انتهاكات لحقوق الإنسان ضد سكان ناغورنو كاراباخ: فقد كانت القاذفات تلقي الآن قنابل عنقودية على المدنيين ذات التأثير المدمر مما أدى إلى ارتفاع الإصابات ارتفاعاً كبيراً. وهربت كثير من العائلات من ستيباناكيرت للانضمام إلى العدد المتزايد من اللاجئين من كاراباخ الباحثين عن ملاذ في أرمينيا.

واستمر الهجوم العسكري بدون هوادة حتى نهاية العام وإلى عام 1993م. واستمرت القاذفات سوخوي 24 و25 بالاشتراك مع طائرات الميك هجومها على ستيبناكيرت والقرى من فانك في الشمال إلى ماردوني في الجنوب. ودخلت ساحة العمليات هجومات أرضية وانتشرت على طول الحدود الدبابات والمدفعية وصواريخ غراد وأخرى جديدة بعيدة المدى، وأخذت تقذف نيرانها من قواعدها التي لا يمكن لقوات دفاع ناغورنو كاراباخ الوصول إليها.

عام 1993م : الهجوم العسكري ضد ناغورنو كاراباخ يستمر

كانون الثاني عام 1993م : حاول وفد من CSI ترافقه شحنة أخرى من المعونة الوصول إلى ناغورنو كاراباخ لتمضية عيد الميلاد الأرمني (6 كانون الثاني) مع الذين كانوا هناك. إلا أن الباص الذي كان يقلهم تعرض إلى عاصفة ثلجية في الجبال في أرمينيا الجنوبية وحوصروا في انهيار ثلجي عند 7000 قدم لمدة 72 ساعة، ولم يكونوا وحدهم. كما كانت كثير من السيارات محاصرة في تلك العاصفة عند درجات حرارة 23- مئوية (مع عامل الريح الشديدة البرودة)، وكان من الممكن إنقاذ تلك العائلات من سياراتهم وأخذهم لقضاء تلك الليلة القارسة البرودة على الحافلة، ولم يكن بوسعهم الحياة لو ظلوا في سياراتهم.

يبين هذا الحادث أن الممر الضروري للحصول على طريق للمؤن إلى ناغورنو كاراباخ، يتم استخدامه والمحافظة عليه بصعوبة وخطورة بالغتين. إذ أنه يتعرض للهجوم باستمرار، ويتعرض الذين يستخدمونه إلى مجازفة كبيرة. فقد أصابت السيارات قذائف من راجمات غراد. وتعرضت أخرى (من ضمنها شاحنة في قافلة للمعونة من وزارات إيلام (ELAM)، مسافرة في الوقت نفسه كما فعلت CSI في كانون الثاني) للسقوط والتدمير فوق حافة ذلك الطريق الخطر.

وفي 7 كانون الثاني، بعد وصولهم إلى ستيباناكيرت، شاهد وفد CSI آخر أسلوب استخدمه الأذربيجانيون ضد شعب كاراباخ. وعند الساعة الحادية عشرة سمع صوت انفجار ضخم، أحدثه صاروخ أرض - جو تم تفجيره لإحداث انفجار فوق المدينة. وقد سقط ذنب القذيفة في إحدى الضواحي، أما باقي القذيفة البالغ طولها تسعة أمتار فقد نشرت شظاياها القاتلة. وهذا السلاح الجديد أداة قاتلة: فهو ينفجر بدون تحذير، وتستطيع شظاياه الحادة كالشفرة أن تقطع أوصال أي مدني. ويزعم أن أذربيجان استخدمت حوالي 30 من هذا السلاح ضد المدنيين في ستيبناكيرت.

شباط عام 1993م : نقلت قافلة معونة ترعاها وزارات إلام (Elam) شحنة من الغذاء والإمدادات الأخرى إلى ناغورنو كاراباخ. ووجدت أن الوضع ما زال خطيراً. فقد تمكن أرمن ناغورنو كاراباخ مؤخراً من الاستيلاء ثانية على قرى عديدة في مقاطعة مارداكيرت التي اجتاحها الأذاريون في العام الماضي. وكانت نسبة الإصابات عالية، وتدفق كثير من الجرحى إلى المستشفيات الميدانية وإلى المشفى الرئيس في ستيباناكيرت.

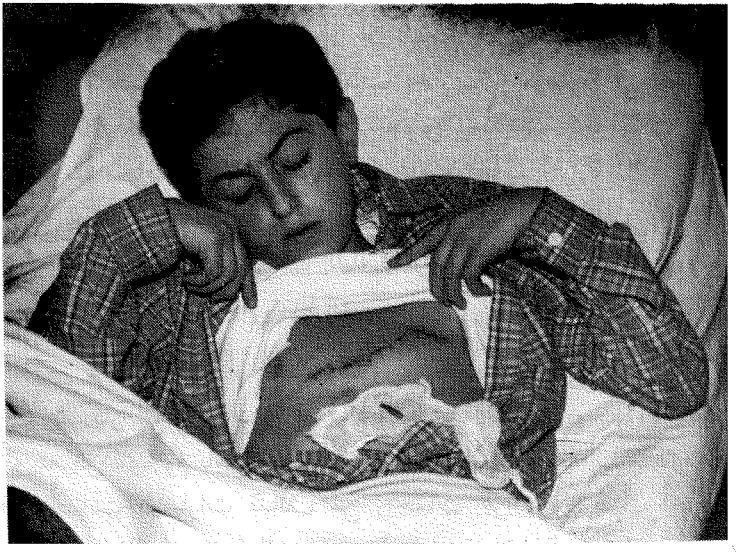

فتى أرمني (12 سنة) بعد إصابته برصاص قنّاص أذاري عام 1991

وقام الوفد بزيارة أجزاء من مقاطعة مارداكيرت، من بينها قرية فانك ودير كانتسار الذي يعود إلى القرون الوسطى. وقد هوجم الموقعان بشكل متكرر جواً. والقرية مدمرة ودُمِّر المستشفى بالقنابل. وقد حدث آخر هجوم جوي قبل زيارة الوفد بخمسة أيام حيث أغارت قاذفات سوخوي 25 بشكل متكرر. وكان الدير مستهدفاً بشكل محدد. وأصيبت الأبنية الخارجية، وظل الدير سليماً حتى اليوم. ووصف مطران ناغورنو كاراباخ باركيف ماردیروسيان محاولات تدمير الدير القديم على أنه "هجوم على روحنا.. إن الدير يمثل روح الشعب".

إلا أن معنويات الشعب كانت مرتفعة. وقد اعتمدت قيادة ناغورنو كاراباخ سياسة "التطبيع": وأعيد بناء ستيباناكيرت على الرغم من أوجه التناقض. ففي الشارع الرئيس، مقابل الأكاديمية الموسيقية التي أعيد بناؤها، توجد خنادق للإغارات الجوية لاتخاذها كملجأ ضد القصف الجوي المستمر.

أكد وزير التعليم والثقافة أن جميع أطفال ناغورنو كاراباخ يداومون على المدرسة الآن رغم أن المدارس قد دمرت بقذائف غراد. وقد افتتحت الجامعة وفيها 3000 طالب وعدد من أعضاء الهيئة التدريسية من يريفان. ومع ذلك فهناك حاجة ماسة للمواد التعليمية من جميع الأنواع ومما يعتبر رمزاً لروح الشعب افتتاح معرض فني في ستيباناكيرت، عرض لوحات فنية ومنحوتات تم إبداعها خلال السنوات القاتمة. وكثير منها تعبّر بشكل قوي وممتع جمالياً. ولعل أكثر الأمور رمزية المسرحية التي مثلت على المسرح ـ أحد المباني القليلة الذي لم يصبه القصف المتواصل. وكان من المزمع عرض مسرحية لشكسبير، إلا أنه اختيرت مسرحية كوميدية خفيفة بدلاً من ذلك بهدف "جلب النور والضحكة إلى الظلام". وجميع من شاهدوا المسرحية الكوميدية، حتى نفس الزوار الذين لا يفقهون الأرمنية، وجدوها مضحكة إلى حدٍ بعيد، وأعجبوا بروح الشعب الذي يمكنه خلق المرح في وسط الخطر الكبير والتهديد بالبقاء.

الأعمال الوحشية

إن أحد أهم الجوانب البشعة وأكثرها مأساوية في الحرب في ناغورنو كاراباخ، أعمال العنف المتعمدة التي أحدثت إصابات عديدة بين السكان وراح ضحيتها عدد من القتلى والجرحى بسبب العمل العسكري المباشر.

خوجالو: توفي كثير من المدنيين الأذاريين بشكل مأساوي خلال الهجوم

الأرمني على خوجالو ـ التي تبعد عشرة أميال عن ستيباناكيرت ـ في ليلة 25 ـ 26 شباط. ويوجد في خوجالو المطار الوحيد في ناغورنو كاراباخ. كما كانت، بالإضافة إلى شوشي، القاعدة الرئيسة للعمليات العسكرية الأذارية داخل ناغورنو كاراباخ. وكانت معظم الهجمات بقذائف غراد تشن من خوجالو وشوشي على ستيباناكيرت. وكان السكان البالغ عددهم 6000 نسمة تقريباً من الأتراك الأذاريين والمسخيت، وقد أعيد إسكان هؤلاء الأخيرين بعد تهجيرهم من آسيا الوسطى من شمال القوقاز على يد ستالين.

وفي 26 شباط، أعلن وزير الداخلية الأذربيجاني أرقام الإصابات: 100 قتيل و250 جريح (نشرة Covcas، 5 آذار عام 1992م). إلا أنه في الأسبوع الأول من آذار أثارت الصحافة الغربية المشاعر وأعلنت الأرقام الجديدة التي وزعتها الحكومة الأذربيجانية بأنه ذبح أكثر من 100 مدني أذاري على يد الأرمن في خوجالو، ومن الواضح أن الصحفيين الغربيين الذين غطوا نتائج المعركة، لم يبذلوا جهداً للتحقق من مزاعم المسؤولين الأذربيجانيين أو لإعطاء وزن مواز للرواية التي أصدرتها السلطات الأرمنية في ناغورنو كاراباخ.

وكجزء من هذه التقارير المتحيزة، استخدم الأذاريون وحلفاؤهم الأتراك على نحو متكرر مذبحة خوجالو كذريعة للبربرية التي ارتكبها الأذاريون، ليجعلوا في سلوكهم شكلاً من أشكال الانتقام بسبب وحشية الأرمن في خوجالو. وعندما تم التقصي عن هذه الأحداث، كان جواب المسؤولين الأذاريين والأتراك أنهم ينقلون المعلومات التي وردت في الصحافة الغربية.

وبالنظر إلى هذه الظروف، حاول أعضاء بعثة لاحقة من CSI التأكد من الرواية الأرمنية للأحداث. ويمكن التأكيد على بعض الجوانب بشكل مستقل، كما يجب أن تبقى الجوانب الأخرى مسألة كلمة الأرمن إزاء كلمة الأذاريين وأيهما يمكن مطابقته أكثر مع الوقائع التي يمكن التوصل إليها؟

استناداً إلى أرمن ناغورنو كاراباخ الذين تحدثنا إليهم، أقروا بأنهم قرروا الهجوم على بلدة خوجالو الأذارية، ورغم أنهم كانوا يعرفون أنه لا يزال يوجد بعض المدنيين. وزعموا أن هذا الهجوم كان ضرورياً لحماية المدنيين في ستيباناكيرت، نظراً لأن خوجالو كانت قاعدة لقاذفات قذائف غراد على المدينة (وهذا صحيح). كما زعموا أنهم لم يكونوا يريدون إيذاء المدنيين ولذا أصدروا تحذيراً مسبقاً للهجوم، طالبين من الأذاريين إخلاء المدنيين. وقد أكد الروس ذلك بشكل مستقل وبشهادة الناجين الأذاريين. وفي إفادة إلى جمعية مراقبة

هلسنكي في باكو في 28 نيسان عام 1992م، قالت آ. هـ. المرأة الأذارية من خوجالو:

"أعطوا (الأرمن) إنذاراً نهائياً.. بأنه يفضل أن يغادر سكان خوجالو رافعين علماً أبيض. وأخبرنا بذلك أليف غاجييف (رئيس قوات القبعات السوداء الأذارية في خوجالو) في 15 شباط، إلا أن ذلك لم يثر الذعر في نفسي ولا في نفوس الآخرين. ولم نعتقد أبداً أنّ بوسعهم احتلال خوجالو (هلسنكي وتش ، ص20).

يزعم الأرمن أنهم عندما بدؤوا الهجوم، كانوا قلقين بشأن المدنيين الذين لا زالوا موجودين في البلدة وحاولوا التفاوض على إيجاد ممر آمن لهم مع الجنود الأذاريين. ويزعمون أيضاً أن الضباط الأذاريين رفضوا ذلك. كما يزعمون بأن الجنود الأذاريين أخلوا المنطقة، واختلطوا مع المدنيين، ووقعت النساء والأطفال بين ملتقى النيران لأن القصف كان يتم من مسافة قريبة جداً، مما أدى إلى إصابتهم بأضرار رهيبة. وتدعم شهادة الناجين الأذاريين الرواية الأرمنية. فقد أفادت هجران ألكبيرا البالغة من العمر 23 سنة أن حشد المدنيين الهارب من خوجالو كان "محاطاً بحلقة من المدافعين. وقد حاولوا الدفاع عنا وكانوا يحملون بنادق وكانوا يحاولون الدفاع عنا". وشهد س. آ. أحد أفراد قوات القبعات السوداء الأذارية قائلاً: "كنا (القوات والمدنيين) نطلق النار ونحن نتراجع، إلا أنه لم يكن تراجعاً منظماً. كنا مختلطين ببعضنا بعضاً". كما أعلن أحد المدنيين الأذاريين: "عندما رآنا الأرمن بدؤوا بإطلاق النار فاختبأنا. وفي الوقت نفسه رد الأذربيجانيون على النار. كانوا من قوات القبعات السوداء الأذارية. وكان بعضهم معنا عندما لذنا بالفرار". واختتمت هلسكني وتش قولها:

"أفاد جميع الأذربيجانيين الذين التقيناهم في هذه المجموعة بأن الميليشيا، الذين كانوا لا يزالون في ثيابهم الموحدة، وبعضهم لا يزال يحمل بنادقهم، انتشروا مع جموع المدنيين" (هلسكني وتش، ص21).

وسمح الأرمن بعد ذلك للعسكريين الأذاريين بالعودة إلى المنطقة لجمع قتلاهم. وهذا الأمر أعطى الأذاريين دليلاً بعدد الإصابات بين المدنيين التي وفرت أساس المزاعم بالمجازر الأرمنية التي تمت بتروّ وبدم بارد. وكانت ت. مازالوفا إحدى الصحفيات القلائل من تشيكوسلوفاكيا اللواتي سبرن ما وراء السطور عندما شاهدت فيلمي فيديو من مجموعة جثث الأذاريين كانت

السلطات الأذارية قد عرضته على وسائل الإعلام، صوّر في 29 شباط والآخر في 2 آذار. ولاحظت أن الرؤوس قد سلخت عنها فروة الرأس. وعندما أثارت موضوع الاختلاف هذا مع رئيس أذربيجان السابق أياز مطاليبوف في نيسان عام 1992م، أعلن أن المجزرة في خوجالو كانت "منظمة" من قبل منافسيه السياسيين لإرغامه على الاستقالة. ووجد أنه من المشكوك فيه أن يسمح الأرمن للأذاريين بجمع الجثث لو كانت المزاعم بالمجزرة صحيحة (نشرة Covcas، 9 نيسان عام 1992م، ص4). ونشرت هلسكني وتش قائمة بـ181 أذاري، 131 ذكر و51 أنثى من بينهم 13 طفلاً، أفاد البرلمان الأذربيجاني بأنهم ماتوا خلال معركة خوجالو. (هلسكني وتش، ص23).

مراغا: يرتبط اسم هذه القرية بمجزرة لم تصل إلى أسماع العالم، رغم قتل ما لا يقل عن 45 أرمنياً بشكل وحشي. وخلال بعثة CSI إلى ناغورنو كاراباخ في نيسان، وردت الأنباء بأن قرية في الشمال في منطقة مارداكيرت، قد اجتاحها الأذاريون في 10 نيسان وبوجود عدد من القتلى المدنيين.

فتاة أرمنية (6 سنوات) بعد إصابتها من جراء انفجار صاروخ أذاري على مدينة ستيباناكيرت عام 1991

وتوجهت مجموعة للحصول على إثباتات ووجدت قرية فيها عدد من الناجين وهم في حالة صدمة، ولا تزال بيوتهم المحروقة يتصاعد منها الدخان، وبقايا الأجساد المتفحمة والهياكل العظمية لا تزال موجودة على الأرض، حيث قطعت رؤوس الناس، وحرقت أجسادهم أمام عائلاتهم. وقتل 45 شخصاً وفقد 100 شخص، ربما يواجهون مصيراً أسوأ من الموت. وبهدف التحقق من القصص، سأل الوفد القرويين إذا كانوا مستعدين لإخراج الجثث بعد أن دفنت. وبأسى شديد فعلوا ذلك، وسمحوا بالتقاط صور لهم. وعندما طلب منهم أخيراً عن الإعلام عن هذه المأساة، أجابوا بأنهم لا يريدون ذلك نظراً "لأننا نحن الأرمن لا نستطيع أن نعبر عن حزننا إلى العالم بشكل جيد".

نعتقد أنه من المهم تسجيل هذه الأحداث والطريقة التي فسرت أو صورت فيها من قبل الناس أنفسهم، ووسائل الإعلام العالمية. ولا بد أن الرأي العام العالمي قد تكوّن نتيجة التغطية الإعلامية ومن المؤكد أن الأذاريين حازوا على تعاطف كبير من خلال مجزرة خوجالو. وعلى العكس، فقد حظي الأرمن بنقد شديد وخسروا دعماً كبيراً نتيجة لسلوكهم المزعوم في خوجالو. ولم تعمل وسائل الإعلام الدولية على تغطية مجزرة الأرمن في مراغا على الإطلاق. وبذلك، ظهرت قوات ناغورنو كاراباخ الأرمنية في عيون العالم على أنها أكثر وحشية من القوات الأذارية. وفي الواقع، فإن الدليل يوحي بأن العكس هو الأرجح.

الرهائن :

كان من بين التأثيرات المزعجة التي وجدها المراقبون المستقلون في مناسبات عديدة الخلاف بين الأذاريين والأرمن في معاملة الرهائن وأسرى الحرب. وبطبيعة الحال، فإنه ليس بوسع المراقبين الشهادة بالطريقة التي عومل بها الأسرى والرهائن. إلا أننا وجدنا دليلاً مباشراً عن سوء معاملة وتعذيب أسرى الحرب والرهائن الأرمن المحتجزين من قبل الأذاريين.

لم يظهر لنا أي دليل مباشر بسوء معاملة وتعذيب الأذاريين المحتجزين من قبل الأرمن. وكان جميعهم في حالة جسدية جيدة نوعاً ما وموجودون في أماكن إقامة مقبولة. وكان أحد الاستثناءات لهذه القاعدة ضابط عسكري أذاري، لم يكن في رأينا يتلقى علاجاً كافياً لجرح خطير أصيب به خلال الصراع. وفهمنا أنه تم تقديم المعالجة الجراحية بعد ذلك. وسُمح لنا بلقاء أسرى الحرب حسب قوانين الاتفاقية الدولية وكانوا راضين بمعاملتهم،

باستثناء تلك الحالة الوحيدة.

وعلى العكس، فإن الأرمن المحتجزين عند الأذاريين الذين التقينا بهم قد تعرضوا لمعاملة سيئة وتعذيب شديد، وشاهدنا مباشرة آثار المعاملة السيئة على أم تبلغ من العمر 38 سنة تدعى إليانور كريكوريان بوغاكوف وطفلها البالغ 4 سنوات من العمر ديمتري. وكانت الأم وابنها يعيشان في باكو، وتم احتجازهما في شتاء عام 1992م. وخلال تلك الفترة، نقلا من مكان إلى آخر، منها: أنهما احتجزا في باكو على يد الجبهة الشعبية الأذربيجانية؛ وفي لاجين على يد الوحدة العسكرية؛ وفي شوشي حيث احتجزتهما قوات القبعات السوداء الأذارية ومن ثم في فرقة دبابات، ثم في أغدام على يد الجبهة الشعبية، ثم في "سجن للتحقيق". ووجدهما وفد CSI في حالة مثيرة للفزع عندما أطلق سراحها في آذار عام 1992م. وكانا قد تعرضا للضرب مؤخراً ولا تزال الأم تنزف وتعرضت لاغتصابات عديدة، وكانت مصابة بسوء التغذية (وزعمت أنها وابنها لم يحصلا على طعام أو ماء لمدة ثمانية أيام، وعندما أحضر للصبي ماء، كان يطفو جرذ فوقها). وتوجد دلائل على وجود حرائق بالسيجارة على يدي الصبي وقالت أمه: "إن محتجزيهما ضربوه على رأسه بمطرقة، وقد منحته قبعته من الفرو شيئاً من الحماية"، وعندما حاولت منعهم من نزعها عنه ضربوه بسلسال.

كما التقى الوفد بكهربائي يبلغ من العمر 40 سنة، أطلق سراحه بعد أن أمضى ثلاث سنوات في السجون الأذربيجانية. وشاهدنا عليه آثار تعذيب قديمة وحديثة، وكان وجهه مليئاً بالندوب وكانت توجد جروح مخثرة حديثاً على وجهه وساقيه ومؤخرة رأسه. وكانت جمجمته مصابة بالكسر، وكان مصاباً بسوء التغذية، وكانت توجد إصابات واضحة في المفصل، وكان مضطرباً نفسياً ومشوشاً.

في الآونة الأخيرة، وفي كانون الثاني عام 1993م، التقى الوفد بسيدة أرمنية مسنّة تدعى السيدة ارفاد بوغوصيان، أخذها الأذاريون رهينة خلال هجومهم على شمال ناغورنو كاراباخ في صيف عام 1992م. وفي اليوم الأول من أسرها، اقتلعت أظافر إحدى يديها من قبل الجنود الأذاريين. ثم بيعت من قرية إلى أخرى كرقيق، وتعرضت لاغتصابات عديدة وإساءات جسدية. وقد فصلت عن زوجها منذ آب عام 1992م ولا تزال لا تعرف فيما إذا كان حياً أم لا.

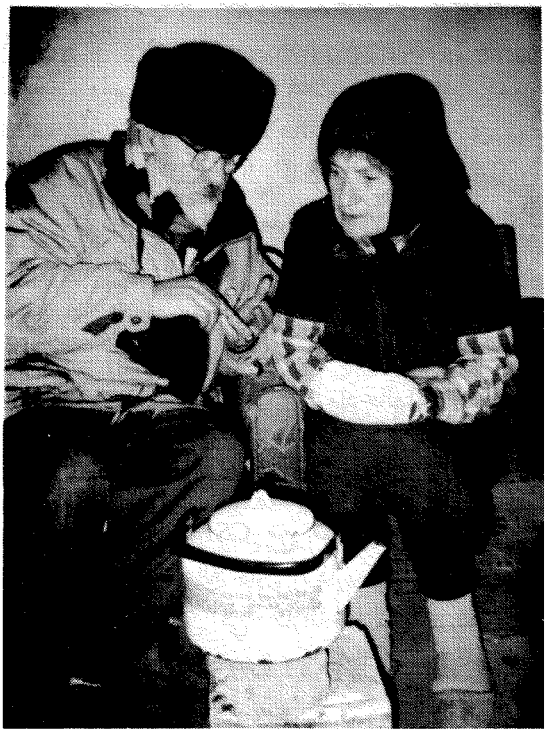

السيدة أرفاد بوغوصيان تروي ذكرياتها

إن أحد الجوانب المزعجة لمعاملة هؤلاء الرهائن يكمن في الرسالة التي نقلت إلى أرمن ناغورنو كاراباخ: بأن هذه هي الطريقة التي سيعامل فيها الأذاريون جميع نسائهم وأطفالهم عندما ينجحون في اجتياح كاراباخ. وبالفعل، عندما أطلق سراح خمس نساء رهائن أخريات مؤخراً من الأسر، وقد أسيئت معاملتهن، وكانت آخر كلمات قالها لهن محتجزوهم: "لا نستطيع الانتظار حتى ندخل ناغورنو كاراباخ ونقتل كل أرمني وخاصة النساء والأطفال".

المعونة الإنسانية

لم يكن من الممكن لأولئك الذين شاهدوا معاناة شعب ناغورنو كاراباخ الجلوس باسترخاء دون أن يفعلوا شيئاً. وبذلت محاولات لإقناع اللجنة

الدولية للصليب الأحمر لنقل معونات الإغاثة إلى ناغورنو كاراباخ، إلا أن مانعهم كان الميثاق الذي يقضي بعدم الدخول إلى بلد بدون إذن من الحكومة المضيفة ـ ولم تمنح أذربيجان ذلك بسرعة آنئذ. كما أعاقت حكومة أذربيجان الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة الرئيسة الأخرى. وتم التركيز على صعوبات إرسال المعونة الإنسانية إلى ناغورنو كاراباخ بالتعاون مع السلطات الأذربيجانية في آذار عام 1992 عندما تعرض وزير الشؤون الإنسانية الفرنسي برنار كوشنيه وقافلته للإزعاج ونهبت معظم شحنة المعونات الإنسانية الطارئة البالغة 22 طناً قبل أن يسمح له بمواصلة الطريق إلى ستيباناكيرت عبر أذربيجان. وبسبب هذه المشكلات، وقع على عاتق CSI جمع المال للحصول على الإمدادات الطبية الرئيسة وإدخالها إلى كاراباخ. ومنذ ذلك الحين، كانت CSI المزود الرئيس للإمدادات الطبية إلى ناغورنو كاراباخ. وأرسلت 11 شحنة من الأدوية والمعدات والمواد الضرورية الرئيسة إلى شعب تلك المنطقة. كما تعاونت CSI مع مؤسسة أندريه ساخاروف لإرسال شحنات من الإمدادات إلى اللاجئين الأذاريين من ناغورنو كاراباخ. إلا أن الأولوية كانت تمنح للأرمن في كاراباخ، لأنهم كانوا محاصرين وراء الحصار، وأذربيجان ليست محاصرة وبوسعها أن تتلقى المساعدة بحرية من منظمات المعونة الرئيسة.

حرمة الحدود إزاء حقوق الإنسان

لقد أعاق المبادرات السلمية للمجتمع الدولي عدم التوازن في تطبيق مبدأين: حرمة الحدود واحترام حقوق الإنسان. وينظر المجتمع الدولي إلى أرمن ناغورنو كاراباخ على أنهم انتهكوا مبدأ سيادة الأراضي، التي تلتزم بها هيئات من قبل مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي (CSCE)، ولو كان الحصار خرقاً واضحاً لحقوق الإنسان ولسبب المعاناة والموت، ولو كان الأذاريون يستخدمون شوشي كقاعدة يمطرون من خلالها الموت والدمار على المدنيين في ستيباناكيرت، ولم كان المجتمع الدولي لم يفعل شيئاً لمساعدة سكان كاراباخ خلال الأشهر الطويلة من المعاناة الشديدة المتسببة عن تأثير الحصار والقصف. ويتضح أن المجتمع الدولي، ولا سيما CSCE، قد وضع في سلم الأولويات حرمة الأراضي الحدودية، ولو كانت حدوداً مرسومة اعتباطياً أو بصورة لئيمة في عهد ستالين. ويتعين احترام هذا المبدأ قبل كل شيء آخر ـ حتى من حماية

الحياة البشرية والموت.

إن الأولوية الواضحة لمبدأ سيادة الأراضي في حالة ناغورنو كاراباخ تثير موضوعات رئيسة نقترح دراستها على المدى البعيد. إن ناغورنو كاراباخ ليست المنطقة الوحيدة التي تعاني من مصير مأساوي كجزء من نهاية حكم ستالين المرعب، من بينها سياساته الوحشية في إعادة توطين شعوب بكاملها في أراضي وأنظمة غريبة. لذلك قد تكون ثمة حالة لإعادة النظر في التوازن بين المبادىء المتناقضة في بعض الأحيان من احترام سيادة الأراضي والحق في تقرير المصير. وتقترح إيلينا بونر ساخاروف من بين أمور أخرى، أن مبدأ احترام سيادة الأراضي يمكن أن يحظى بالدعم في الدول الأكثر رسوخاً في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، ويمكن أن تكون أقل ملائمة للحدود المرسومة بشكل قاس في بعض الأحيان في الامبراطورية السوفييتية السابقة. وتقترح أنه ربما كان ثمة حاجة لفترة يمنح خلالها مزيداً من الاحترام لمبدأ تقرير المصير، في شكل ما، حتى تنقضي فترة من الزمن، لكي تسمح بالاندماج بين الحدود العرقية والدينية والأراضي. وعندما تترسخ هذه الحدود، فإن مبدأ احترام سيادة الأراضي يمكن تطبيقه بشكل ملائم.

خصائص شعب ناغورنو كاراباخ

ثمة عامل هام متبق يجب إدراكه ألا وهو خصائص الشعب. إذ أن هذه الخصائص تشكل جزءاً هاماً من البعد الإنساني والمعادلة السياسية. وقد أبدى جميع الشهود المستقلين تقريباً في الوفود الدولية الذين قاموا بزيارة كاراباخ إعجابهم الشديد بالشعب وخاصة في ما يتعلق بسخائه وشجاعته ومرونته وكرامته وهو لا يكن الكراهية بالرغم من المعاناة التي كابدها. وثمة أربعة أمثلة نموذجية استمدت من لقاءات لا تحصى تبين هذه الخصائص:

أولاً، ممرضة في مراغا رأت لتوها ابنها وقد قطع رأسه وفقدت 14 فرداً من أسرتها. وبعد أن شرحت ألمها، سئلت فيما إذا كانت ترغب في توجيه رسالة إلى العالم. فارتقت فوق حزنها وقالت باعتزاز: "أرجو أن أقول: "شكراً لكم". وبصفتي ممرضة، كنت أعمل في هذا المشفى وشاهدت كم أنقذ الدواء الذي جلبتموه أرواح العديد من الأشخاص ووضع حدّاً لمعاناة شديدة. شكراً لكم لأنكم لم تنسونا في أيامنا المظلمة".

إن هذا بالتأكيد انتصار للروح الإنسانية: للارتقاء فوق هذا الحزن والتعبير عن شكرها.

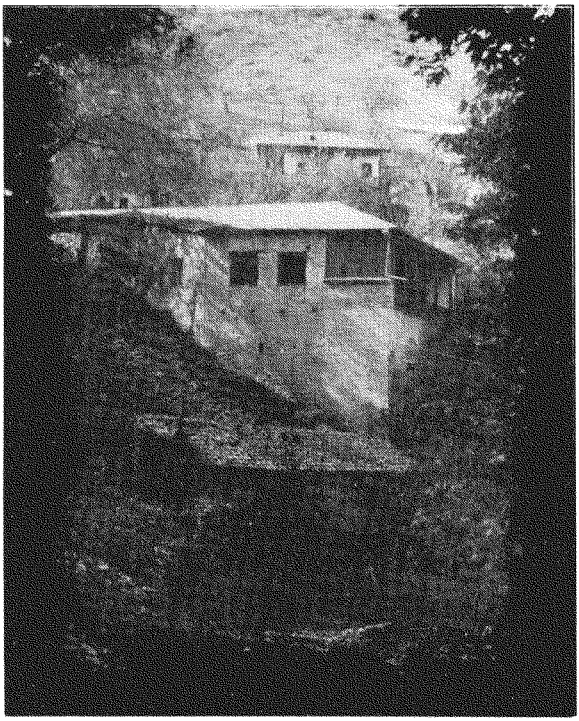

منظر من قرية بالونتس ماكان الأرمنية في كاراباخ

ثانياً، رجل عجوز في قرية كان قد اجتاحها الأذاريون ووصف كيف قُتل ابنه في أول ليلة من القتال. وفي اليوم الثاني، عندما احتل الأذاريون القرية رأوا مقبرة جديدة، وهم يعرفون أن من عادة الأرمن أن يدفنوا موتاهم وهم يرتدون أجمل ثيابهم، فحفروا قبر ابنه، لينزعوا عنه بزته الجديدة ثم دعا الرجل الوفد إلى بيته الذي أتلفه الأذاريون. ولم يتبق له شيء لمواجهة الشتاء القارس، فيما عدا كومة من الجوز وكومة من التفاح على الأرض العارية ـ وألح على إعطائنا من التفاح.

ثالثاً، النساء والأطفال الشجعان في ستيباناكيرت التي قصفت والصبي الذي عاد إلى بيته، بعد أن انتظر في الصف مدة خمس ساعات في الطقس القارس، انزلق على الجليد واندلق دلوي الماء اللذين كان يحملهما. وقال طرفة وعاد للانتظار خمس ساعات أخرى دون أن يتذمر.

رابعاً، الأرمني من مقاطعة شاهوميان الذي وصف تجربته خلال عمليات

التهجير من كيداشين وماردوناشين في أيار عام 1992م. وتذكر بعد أن شاهد عمليات التهجير من كيداشين، هرب وصعد الجبل ووصل إلى شجرة مشمش. وكانت على الشجرة فتاة أرمنية معلقة عمرها خمس سنوات وقد شطرت إلى قسمين. وأقسم بالانتقام. وفيما بعد، وصف كيف أنه لم يف بوعده عندما استولى الأرمن على القرية ثانية، لأنه لم يتمكن من إيذاء امرأة أو طفل. وعندما علّق أحد أعضاء الوفد على عاطفته وكرامته، أجاب ببساطة: "إن الكرامة هي تاج الأشواك".

وأخيراً نورد اقتباساً مما قاله مطران ناغورنو كاراباخ:

"بدأ شعبنا مرة أخرى يجد إيمانه وأصبح يصلي في الزنزانات وفي ساحة المعركة، وهو يدافع عن حياته وحياة الأقارب والأعزاء. وليس مرتكبو الجرائم والآثام هم أصحاب الخطايا فقط، بل كذلك الذين يقفون ـ ويتفرجون ويعرفون ـ والذين لا يدينونها أو يحاولون تجنبها. طوبى لصانعي السلام، لأنهم سيدعون أبناء الله. إننا لا نكره: فنحن نؤمن بالله. فإذا أردنا نصر الله، فيجب أن نحب. حتى لو كانت توجد قوى شيطانية، ليس فقط في هذا الصراع، بل في أجزاء أخرى من العالم، يجب أن نبقى نحب".

الإبادة : استمرار إراقة الدماء

نظراً لتصعيد الهجوم العسكري ضد شعب ناغورنو كاراباخ، ونظراً للمحاولات الأخيرة التي يبذلها الأرمن لاستعادة القرى التي خسروها في الهجوم الأذربيجاني في السنة الماضية ليتمكنوا من إعادة توطين بعض لاجئيهم؛ ونظراً للخوف الحالي من أن الأذاريين يعدون لهجوم كبير جديد في الربيع، يحتمل أن إراقة الدماء سوف تستمر دون هوادة.

يكرر الأرمن في كاراباخ أنهم لن يتركوا وطنهم. ويكرر الرجال القابعون في خط الجبهة ـ وهم مزارعون وأجداد، وصبيان وطلاب شباب أو محترفون كالأطباء والمحامين ـ باستمرار أنهم لا يريدون القتال. إلا أنهم يسألون: "ماذا يمكننا أن نفعل؟ ينبغي أن ندافع عن عائلاتنا وبيوتنا ووطننا وتراثنا". ويقولون إنهم سيقاتلون حتى آخر رجل وامرأة وهم يفسرون مقدرتهم بالدفاع عن أرضهم إزاء هذه المحن بحافز كبير فهم يقاتلون من أجل كل شيء يؤمنون به ـ ومن أجل البقاء. وهم يجادلون بأن القوات الأذربيجانية والجنود المرتزقة الذين يقاتلون معهم لا يوجد لديهم الإيمان نفسه. ويزعم أحد قادة كاراباخ بأن القادة

الأذربيجانيين يضعون المجندين من مجموعات الأقليات العرقية كاللسكيين والتاليش والأكراد في الخط الأول خلال هجماتهم وهذا يخدم هدفين: فإذا قتلوا، فإن ذلك يخفف من "العنصر القومي" في أذربيجان، وإذا قاتلوا ببسالة، فإن ذلك يقلل عدد الأرمن في ناغورنو كاراباخ. كما زعم القائد نفسه بأن السلطات الأذربيجانية لا تبذل جهداً في استعادة جثث الأقليات العرقية كما تفعل لاسترداد قتلاها من الأذاريين.

ولا يمكننا إثبات صحة هذه الأقوال، رغم أن القائد عرض أن يري وفد CSI إثبات جوازات السفر المأخوذة من هذه الجثث وما وصفه "بساحات القتل" حيث لم تترك جثة أذرية لم تؤخذ.

إلا أن الشيء الذي لا يمكن إنكاره هو أن كلا الطرفين قد أصيب بخسائر جسيمة في القتلى والجرحى. ففي شباط عام 1991م، قدر قائد القوات الأرمنية في ناغورنو كاراباخ سيرج سركيسيان، بأنه منذ الهجوم الأذربيجاني في حزيران عام 1992م، بلغ عدد القتلى في القوات المسلحة الأذربيجانية 4500 والجرحى بين 18000 - 20000 وخلال الفترة ذاتها، فقدت القوات الأذربيجانية 12 قاذفة مقاتلة و10 حوامات و128 دبابة، استولى أرمن كاراباخ على بعضها. ولم تعط أرقام الإصابات التي ألحقت بالأرمن. إلا أنهم أصيبوا بأعداد كبيرة من القتلى والجرحى، ومستويات عالية من إصابات المدنيين. وثمة ثمن باهظ من نوع مختلف لا يزال يدفعه اللاجئون من كلا الطرفين في ناغورنو كاراباخ، اللاجئون الأذاريون الذين هربوا من بيوتهم والمهجرون الأرمن واللاجئون من مقاطعتي شاهوميان ومارداكيرت، الذين يعيش معظمهم في ظروف قاسية في أرمينيا.

النتائج

ـ كلّفت الحرب في ناغورنو كاراباخ الآلاف حياتهم ونزح عشرات الآلاف. وشبح المجاعة والأوبئة والمجازر يخيم على المنطقة.

ـ تتسم الحرب بعنف شديد. فقد سعت أذربيجان منذ بداية الصراع إلى تحقيق أهدافها عن طريق التصعيد العسكري بشكل مضطرد ويعد المجتمع الأرمني في ناغورنو كاراباخ الضحية الرئيسة في هذا الصراع المأساوي. ونحن لا ندعي أنهم غير ملومين أو أنهم لم يسهموا في مجمل الآلام البشرية. إلا أن أذربيجان تعتبر المعتدي الرئيس في ما لا يقل عن خمسة أمور:

1 ـ كانت أذربيجان مع الجيش السوفييتي الرابع تقوم بعمليات التهجير الوحشية من القرى الأرمنية بكاملها من منطقة ناغورنو كاراباخ المستقلة ذاتياً ومنطقة شاهوميان المجاورة. ويعيش حالياً آلاف من اللاجئين من أعمال التهجير هذه في ظروف من الفاقة الشديدة في أرمينيا أو في ناغورنو كاراباخ.

2ـ كانت أذربيجان هي التي فرضت الحصار القاسي على ناغورنو كاراباخ وعلى أرمينيا، وأحدثت ضرراً كبيراً في الاقتصاد الأرمني، وحاولت القتل عن طريق منع الإمدادات الضرورية ببطء، من بينها المعونات الإنسانية الطارئة إلى شعب ناغورنو كاراباخ. بل أن هذا الحصار استمر خلال كارثة الهزة الأرضية التي أصابت أرمينيا، مما أعاق دخول إمدادات الإغاثة التي هي في أمس الحاجة إليها.

3 ـ كانت أذربيجان أول من استخدم قاذفات صاروخ غراد المتعدد القذائف ضد المدنيين في ناغورنو كاراباخ، التي أدت إلى تصاعد معدل الإصابات ولا سيما بين النساء والأطفال وتدمير المرافق الأساسية كالمستشفيات وغيرها.

4 ـ إن أذربيجان هي التي تستخدم حالياً القصف الجوي ضد الأهداف المدنية بالقنابل العنقودية التي زنتها 500 كغ.

5 ـ إن أذربيجان هي التي تستخدم الآن صواريخ أرض ـ جو ضد المدنيين

في ناغورنو كاراباخ، محدثة تهديداً أكبر للحياة ولا سيما بين صفوف النساء والأطفال والمسنين.

- يمكن التخفيف من آلام كل من المجتمعين الأرمني والأذربيجاني إذا ما كفّت أذربيجان عن محاولتها في فرض حل عسكري.

- ظهرت تركيا كحليف رئيس لأذربيجان في حربها ضد أرمن ناغورنو كاراباخ، فقد أمدتها بكبار المستشارين العسكريين "المتقاعدين" وضربت حصاراً اقتصادياً على أرمينيا.

- إن الدلائل المتاحة تشير إلى الاستمرارية التاريخية لإبادة الأقليات العرقية في تركيا والحرب ضد ناغورنو كاراباخ.

التوصيات

ـ ثمة حاجة ماسة لتدخل بنّاء من جانب المجتمع الدولي، إذا ما أريد عدم تصعيد الصراع المأساوي بشكل أكبر، كيلا يحدث مزيداً من المعاناة لكلا الجانبين.

ـ ثم خطر بانتشارها وراء ساحة الحرب الفورية لتصبح حرباً إقليمية. إذ تشن أذربيجان حالياً عدداً من الهجمات على القرى الأرمنية في أرمينيا نفسها، مع سقوط إصابات كثيرة. وفي بعضها، لم يُقتل أو يُجرح مدنيون من الأرمن فقط بل ومن الروس أيضاً.

ـ في الآونة الأخيرة، طلب زعماء أرمينيا وناغورنو كاراباخ وقفاً غير مشروط للنار. لكن أذربيجان، تدعمها حليفتها تركيا، رفضت الاقتراح، وأصرت على انسحاب جميع قوات الدفاع من ناغورنو كاراباخ. ومن الواضح أن هذا غير واقعي، نظراً للهجمات المستمرة على كاراباخ، وإدراك حاجة شعب ناغورنو كاراباخ للحفاظ على دفاعاتهم لحمايتهم.

ـ ثبت حتى الآن أن مبادرات CSCE غير فعّالة في تحقيق إجراءات بناء الثقة الضرورية لكي تتمكن أطراف الصراع من الاتفاق على وقف أعمال العدوان. ونظراً لكثافة الصراع وفقدان أي نوع من الثقة الناجم عن ذلك، فيتعين على المجتمع الدولي أن يعمل بجد لوضع إجراءات كافية لبناء الثقة للتوصل إلى وقف للنار بشكل موثوق.

ـ ثمة حاجة لتوفير معونات إنسانية منتظمة للإيفاء بحاجات جميع الذين عانوا من الحرب، ولا سيما حاجات سكان ناغورنو كاراباخ واللاجئين والمهجرين في أرمينيا.

ـ ثمة حاجة ماسة لرفع الحصار الذي تفرضه أذربيجان والذي تصعده تركيا. إذ ليست تلك انتهاكات لحقوق الإنسان الرئيسة فحسب، بل تعوق تسليم المعونات الإنسانية التي هم في أمس الحاجة إليها، وتعمل على شل الاقتصاديات في كل من أرمينيا وناغورنو كاراباخ.

ـ ثمة حاجة ماسة لأن تقوم الهيئات الدولية بالإشراف على معاملة الرهائن وأسرى الحرب، ومحاولة القيام بتبادلهم وإطلاق سراحهم في أقرب وقت ممكن. فقد أخذ كثير من الأرمن في ناغورنو كاراباخ كرهائن. ونظراً للدلائل التي شاهدتها الوفود الدولية في إساءة معاملة الرهائن والأسرى، فإنه يجب التأكيد على ضرورة هذا التدخل.

ـ ثمة حاجة ماسة لبذل محاولات لتحقيق الرأفة والرحمة بحق خمسة أسرى حرب محكوم عليهم بالسجن المؤبد في باكو. وأسماؤهم هي: أرنو مكرديجيان، أرفيد مانكاساريان، كاكيك هاروتيونيان، غراتشنيك بيدروسيان وكارنيك اروستاميان.

ـ لا يمكن الحكم مسبقاً على الحل السياسي الطويل الأجل. فالضرورة الماسة تدعو إلى تشجيع الجانبين في الصراع للموافقة على وقف غيرٍ مشروط للنار، والمحاولة لتحقيق حل بالوسائل السلمية بالمفاوضات وليس بالقذائف والدبابات والرصاص والقنابل. ومن الأمور الهامة على نحو خاص محاولة التخلي عن نية أذربيجان في تحقيق حل عسكري، يمكن أن يسفر عن مجزرة لأرمن ناغورنو كاراباخ.

ـ من المؤكد أن المجتمع الدولي لن يقف جانباً ولن يتغاضى عن مجزرة أخرى بحق الأرمن.

المصادر والمراجع

Allen, W.E.D., and Muratoff, Paul, Caucasian Battlefields, Cambridge, 1953.

Altstadt, Audrey L., The Azerbaijani Turks: Power and Identity under Russian Rule, Stanford, 1992.

Atkin, Muriel, Russia and Iran: 1780 - 1828, Minneapolis, 1980.

Balian, Hrair, Nagorno-Karabakh and Soviet Nationalities-Conflicts: Human Rights, Berkeley, July 17. 1991.

BBC Monitoring, SWB: Summary of World Broadcasts, Part 1, Former USSR, Caversham.

Bennigsen, Alexander & Wimbush, S. Enders, Muslims of the Soviet Empire: A Guide, Bloomington, 1986.

Bournoutian, George A., Eastern Armenia in the Last Decades of Persian Rule: 1807-1828, Malibu, 1982.

Braude, Benjamin & Lewis, Bernard edt., Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society, Vol. I, The Central Lands, New York, 1982.

Brook, Stephen, Claws of the Crab: Georgia & Armenia in Crisis, London, 1992.

COVCAS Bulletin: Human Rights Developments & Nationalities-Confkicts in the Trans-Caucasus, Geneva,November 1991-

Cullen, Robert, "A Reporter at Large: Roots", The New Yorker, April 15, 1991.

Der Nesessian, The Armenians, (London), 1969.

Helsinki Watch, Bloodshed in the Caucasus: Escalation of the Armed Conflict in Nagorno Karabakh, New York, September 1992.

Hofmann, Tessa & Koutcharian, Gerayer, Armenien, Volkermord, Vertreibung, Exil, Gottingen, 1987.

Holt. P.M., Lambton, Ann K., Lewis, Bernard eds., Cambridge History of Islam, Vol. I., The Central Islamic Lands, Cambridge, 1970.

Hostler, C.W., Turkism and the Soviets, London, 1957.

Hovannisian, Richard G., Armenia on the Road to Independence, 1918, Berkeley, 1969.

Hovannisian, Richard G., The Republic of Armenia, Vols I & 2, Berkeley, 1971 & 1983.

Kazemzadeh, Riruz, The Struggle for Transcaucasia, 1917-1921, New York, 1951.

Koutcharian, Gerayer, Der Siedlungsraum der Armenier unter dem Einfluss der Historisch - Politishcen Ereignisse seit dem Berliner Kongress 1878 : Eine Politisch-Geographische Analyse rnd Dokumentation, Berlin, 1989.

Lang, David Marshall, Armenia: Cradle of Civilization, London, 1970.

Lepsius, Johannes. Deutschland und Armeinen, 1914-1918, Potsdam, 1919.

Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, London, 1968.

Luchterhandt, Otto, Das Recht Berg-Karabaghs auf staatliche Unadhangigkeit aus volkerrechtlicher Sicht, Hamburg, 1992.

Matossian, Mary Kilbourne., The Impact of Soviet Policies in Armenia, Leiden, 1962.

Nalbandian, Louise, The Armenian Revolutionary Movement: The Development of Armenian Political Parties through the Nineteenth Century, Berkeley, 1963.

Ormanian, Maghachia, The Church of Armenia, London, 1955.

Pax Christi Netherlands, Human Rights Violations in Armenia and Azerbaijan, September 26, 1991, updated January 24, 1992.

Rohrborn, Klaus Michael, Provinzen und Zentralgewalt Persiens im 16. und 17. Jahrhundert, Berlin, 1966.

Sakharov, Andrei, Moscow and Beyond: 1986-1989, London, 1990.

Sakisyanz, Manuel, A Modern History of Transcaucasian Armenia, Leiden, 1975.

Suny, Ronald Grigor, "Nationalism and Democracy in Gorbachev's Soviet Union: The Case of Karabakh", in Denkev, R., Soviet Nationality Reader, Westview, 1992.

Swietochowski, Tadeusz, Russian Azerbaijan, 1915-1920: The Shaping of National Identity in a Muslim Community, Cambridge, 1985.

Toynbee, Arnold J, 'The Murderous Tyranny of the Turks', London, 1917.

Toynbee, Arnold J., ed., The treatment of Armenians in the Ottoman Empire, London, 1916. (Great Britain, Blue Book, Miscellaneous no. 31, 1916).

Toynbee, Arnold J,. The Western Question in Greece and Turkey, London, 1922.

Toynbee, Arnold J. & Kirkwood, Kenneth P., Turkey, London, 1926.

Walker, Christopher J., Armenia, New York, 1980.

Walker, Christopher J., ed., Armenia and Karabakh: The Struggle for Unity, London, 1991.

Zenkovsky, Serge A., Pan-Turkism and Islam in Russia, Cambridge, Massachusetts, 1960.

صدر من سلسلة الدراسات الأدبية والتاريخية

1 ـ صورة التركي في الشعر العربي الحديث ـ (1870 - 1920)
تأليف: الدكتور نعيم اليافي وماهر المنجد ـ 1995

2 ـ الذئب الأغبر (قراءة نقدية في الأدب الحديث)
تأليف: ابراهيم الخليل ـ 1995

3 ـ أنين السرو (تجليات الآخر الأرمني في الرواية العربية)
تأليف: أسعد فخري ـ 1995

4 نضال العرب والأرمن ضد الإستعمار العثماني
تأليف: الدكتور نعيم اليافي والدكتور خليل الموسى ـ 1995

5 ـ حرب تقرير المصير في كاراباخ الأرمنية ـ 1995
تأليف: كارولين كوكس و جون إيبز، ترجمة: خالد الجبيلي ـ 1995

فهرس المحتويات

- **تقديم ـ إيلينا بونر ساخاروف** 5
- **المقدمة** 9
- **حقائق أساسية** 11
  - الأرض 11
  - الأرمن 13
  - الأذاريون ـ الأتراك 15
  - المسيحية 16
  - الإسلام 17
  - صراع الحضارات 18
  - التتريك 19
  - الحرب المقدسة 19
  - الراعي والرعية 20
  - تركيا في أفول 22
  - الطورانية 23
- **الإبادة الجماعية** 27
  - المذابح في التسعينات من القرن التاسع عشر 27
  - تركيا الفتاة 30
- **كلاّبات الطورانية ـ بذور الإبادة الجماعية في ما وراء القوقاز** 35
  - العدوان الطوراني 36
  - المعركة من أجل ناغورنو كاراباخ 40
  - الحكم السوفييتي 43
  - إحياء قضية كاراباخ ـ الانفتاح وإعادة البناء 47
  - أعمال العنف ضد الأرمن 49
  - الحصار 52

- عمليات الانتقام الأرمنية 53
- ردة فعل موسكو 54
- بعثة ساخاروف 58
- عملية الطوق 62
- مؤتمر ساخاروف التذكاري 64
- النتائج والتوصيات 65
- إسهام إضافي للمؤتمر الصحفي 66
- النتائج 67
- النتائج 67
- زيارة متابعة إلى أذربيجان وأرمينيا وناغورنو كاراباخ 68
- انتهاء عملية الطوق 73
- الصراع بعد المرحلة السوفييتية 74
- الاستفتاء والانتخابات في ناغورنو كاراباخ 75
- تصعيد الهجوم العسكري 75
- الهجوم الأرمني المضاد 78
- عام 1993م. الهجوم العسكري ضد ناغورنو كاراباخ يستمر . 81
- الأعمال الوحشية 83
- الرهائن 87
- المعونة الإنسانية 89
حرمة الحدود إزاء حقوق الإنسان 90
- خصائص شعب ناغورنو كاراباخ 91
- الإبادة: استمرار إراقة الدماء 93
- النتائج 95
- التوصيات 97
- المصادر والمراجع 99

سلسلة
الدراسات
الأدبية
والتاريخية
5

«بالنسبة لأذربيجان فإن موضوع كاراباخ هو مسألة طموح، وبالنسبة لأرمن كاراباخ فإنها مسألة حياة أو موت».

اندريه ساخاروف (1921 - 1989)
عالم فيزيائي، نصير حقوق الإنسان،
الحائز على جائزة نوبل للسلام

نادي الشبيبة السورية ـ اللجنة الثقافية ـ حلب ـ ص.ب. 3699
دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب. 1018 ـ هاتف 422339 ـ 412935